أولاد الحلة

مزمل سلمان غندور



أولاد الحلـة

أولاد الحلـــة

مزمل سلمان غندور



دار عزة للنشر والتوزيع

الخرطوم السودان

الكتـــــاب : أولاد الحلة

المـــؤلـــف : مزمل سلمان غندور

رقم الإيـداع : ٥٣٧٦ / ٢٠١٠

تاريخ النشــر : ٢٠١٠ الطبعة الأولى

ردمـــــــك : ٤.٢ - ٤٥ - ٤٢ - ٩٩٩

النـاشـــــر : دار عـــزة لـلـنشـــر والتـــوزيع

الإدارة : شارع الجامعة - الخرطوم - جنوب وزارة الصحة.

ت: ٨٣٧٨٧٢٠٠ فاكس : ٨٣٧٩٧٠٨٤ (١ - ٢٤٩+)

التــوزيـــع : دار عزة للنشر والتوزيع ت : ٨٣٧٨٧٢٠١

السودان - الخرطوم . ص.ب : ١٢٩٠٩

بريد إلكترونى azzaph@yahoo.com

الإهـــداء

إلى كرماء أم درمان الذين أعطوا دون من وسعدوا
بما أعطوا وهبوا المال والغذاء والكـــساء والراحة
والأمن والمأوى سراً وعلانية.
جزاهم الله قصوراً في الجنة وبعداً عن النار.

مزمل غندور

تقدير ومودة

مرت الأيام والأشهر وأمتدت المعرفة فتحول الشكر إلى إمتنان والتقدير إلى مودة، والمودة في طريقها إلى المحبة والمزيد من المعرفة.

رجل يتهندم وكأنه عامل يتحرك في كثير من الحالات حافي القدمين، يقابل كل من يدخل عليه بإبتسامة مشرقة يعرفه أو لا يعرفه يعانق كل من يعرفه حتى لو كان معه في اليوم السابق.

أوقف نفسه وكل طاقته إلى رسالة، وأروع ما في الحياة أن يكون للمرء رسالة والكهل الذي يعمل ويتحدث ويناقش كل ذلك بقوة وروح الشباب يذكر أيام الكفاح والسجون وكأنه يتحدث عن إجازات في الريفيرا أو لبنان أو الكاريبي.

قدم لي الكثير وأصدر خماسية مزمل غندور الأولى وهاهو يصدر خماسية مزمل غندور الثانية ويصدر لغيري عشرات الكتب دون من، ذلك هو الأستاذ نور الهدى محمد نور الهدى صاحب دار عزة للنشر فله دوماً التقدير والمودة وفقه الله ورعاه وسدد خطاه.

ومن الواجب والوفاء ذكر الآنسة ومضة محمد الحسن التي بالقطع مرت تحت أناملها المقتدرة مئات الآلاف من الكلمات الرائعة بكل إقتدار وخبرة عبر جهازها وملايين الحروف مع الصبر والإتقان فلها كل الشكر والتقدير والحمد والشكر لله القدير قبل كل شيء الذي هيأ لي التعرف إلى بعض خبرة البشر فله الحمد في الأولى والآخرة.

* * *

(١)

اسمهم أولاد الحلة، ليس أولاد الحي ولا أولاد الحارة ولا أولاد الفريق، هم أولاد الحلة. كلمة الحلة أكثر حنية وأقرب مودة من كل الأولاد الآخرين، يتحدثون عن بعضهم البعض ويقولون "دا ود حلتي" فهي تشبه في عاطفها "دا أخوي" أو دا شقيقي.

فعلاً كانت "حلة" وكانوا كلهم سواسية أما فقراء أو فقراء جداً أو أحسن من ذلك قليلاً وأولئك كانوا قلة في الحلة، أعنى من هم أحسن من ذلك قليلاً.

تتكون الحلة من شارع واحد وعدد من الأزقة أو الشوارع الضيقة أرضها تراب مثل كل تراب أم درمان وبيوتها من الطين مطلية بالزبالة وفي ناصية الشارع الوحيد عمود كهرباء به (لمبة) واحدة كانت في الماضي غير البعيد (فانوس) من الغاز يوقد عند المغيب بواسطة عامل يحضر على ظهر حمار ويطفأ الفانوس عند الصباح.

ثم جاء التيار الكهربائي فتغير (الفانوس) إلى مصباح كهربائي صار يضئيه رجل على حمار يحمل (قناة) طويلة أخرها أو على الأصح أولها معكوف يستعمله نفس الرجل في إضاءة المصباح في المساء واطفائه في الصباح.

تحت ضوء ذلك المصباح يقضي أولاد الحلة أمسياتهم في ألعاب الليل أو المؤانسة أو الشجار.

سكان الحلة مجموعة – كما قلت – من الفقراء أما الفقير جداً أو الفقراء أو القلة الذين ليسوا كذلك ولكن لم يكونوا أحسن من أولئك بكثير. وروعة الحلة وأولادها ورجالها ونسائها أنهم لم يكونوا يحسون بأنهم

فقراء أو فقراء جداً أو غير ذلك. الطابع العام عنهم أنهم كانوا سعداء بحالهم راضين بذلك الحال على اعتبار أنه واقعهم وقدرهم.

في أول الحلة في الشارع الوحيد نجد بائع قش الحمرة والقصب وفي نفس الوقت هو (طياني) أي يبني بيوت الطين، وجاره من الجانب الغربي (دقاق) والدقاق هو الذي يحمل ملوة الذرة من البيوت إلى الطاحونة يطحنها ثم يعيدها وينال في ذلك ملاليم قليلة مقابل هذا العمل.

يلي دار (الدقاق) دار الحداد فهو ليس حداداً أفرنجياً يصنع الأبواب أو الشبابيك أو الدرابزين بل حداد يجلس على الأرض ويصنع الملودة والسكين والطورية وغيرها ولديه (كور) من الجلد تمتد منه ماسور إلى النار المقادة على الأرض لنفخ الهواء لأشعال النار وزيادة حرارتها.

أما ما بعد الحداد فمنزل (الحلبي) الذي يعمل على تبيض أواني النحاس وتلك مهنة يحتكرها هؤلاء لخبرة ربما جلبوها معهم من حيث أتوا أما مصر أو بعد مصر.

ويلي منزل (الحلبي) منزل موظف البريد وهذا يعتبر في الحي (أفندي) محترم يخرج في الصباح إلى البوستة ويعود بعد الظهر يرتدي البدلة وربما الطربوش.

أما بعد ذلك نجد في الجانب الآخر من الشارع الرئيسي كمساري الترام وهو يرتدي الزي الكاكي الخاص بالكماسرة ويضع فوق رأسه طربوشاً ويعتبر أحد المحترمين في الحي وبعده نجد نساج العناقريب الذي يمتلك دكاناً في سوق العناقريب ولكنه في نفس الوقت يمكنه نسج عناقريب أهل الحي في منازلهم كما أنه في جانب من الزقاق المقابل لديه أوتاداً يشد عليها حباله التي يصنعها من سعف الجريد.

وإذا تقدمنا في الجانب الآخر نجد (الطياني) الذي يبني بيوت الطين والملاحظ أن في الحلة أكثر من طياني واحد والسبب أن في ذلك الزمان بدأت أم درمان في التوسع وقد عمد مفتش المركز إلى توزيع أراضي

جديدة تحتاج إلى مباني وفي نفس الحلة نجد (التّرابي) وهو الذي يمتلك عدداً من الحمير يجلب بها التراب من (الخلاء) غرب أم درمان لبناء المنازل وعلى تلك الحمير (قلايب) من السعف والقليبه هي عبارة عن حاملة مصنوعة من السعف كأنها (قفتان) مربوطتان مع بعضها البعض توضع على ظهر الحمار ويوضع التراب في الجانبين.

وإذا تقدمنا قليلاً نجد منزل النجار ثم طياني آخر وضابط جيش متقاعد ويعتبر أكثر أعيان الحي مركزاً ووظيفة ومنزله من الطوب الأحمر ولكن في الواقع يستعمل الطوب الأحمر من الخارج وبالداخل في الحائط طوب (أخضر) أي من الطين ويسمى نوع هذا البناء (قشرة).

وفي الأزقة الخلفية نجد منزل الجزار والقهوجي وعسكري البوليس ومدرس الكتاب وصاحب الكنتين والفحّامي والفكي الذي يكتب البخرات (ويعزم) للأطفال عندما تصيبهم الحمى.

هؤلاء هم عينة من أهل الحلة ولكن هناك أولاد الحلة. إن الله سبحانه وتعالى رزق هؤلاء القوم مع فقرهم وجهلهم رزقهم الذرية ففي كل منزل عدد غير قليل من الأولاد والبنات لا حبوب منع الحمل ولا (لولب) وبعض نساء الحي يلدن مرتين في العام الطفل الأول في أول العام والذي يليه قبل نهاية العام ومع ذلك لا شكوى ولا ضجر وإن كل الحي يشعر بأن الأولاد نعمة مهما كثروا وشعاراتهم هي شعارات الفقراء، ما يكفي أثنين يكفي ثلاثة وما يكفي ثلاثة يكفي خمسة وهكذا.

اللبس (دمورية) ونوم على بروش في الهواء الطلق والغطاء بثياب من الدمورية ويصدق عليهم القول "بردك قدر غطاء" لا بطاطين من الصوف ولا ملابس من الصوف وفي الشتاء يجلس الجميع تحت حرارة الشمس يأخذون منها الدفء والفيتمينات (د) وهم لا يعرفون فيتمينات (أ) ولا (ب) ولا (ج).

أولاد الحلة نجد الأطفال دون الخامسة مع الأمهات في البيوت يلعبون بالطين والتراب والحجارة وبعد الخامسة ينتقل الأولاد إلى الخلوة لتعلم الكتابة والقراءة والقرآن والتأديب على طريقة ذلك الزمان بالسوط وأم سعدالله وبعد السابعة ربما ينتقل البعض إلى الكتاب فالمدارس كانت مفتوحة والحكومة تشجع الأهالي بإرسال أولادهم إلى المدارس وكانت المدارس شبه مجانية فالفقراء – مثل أولاد الحلة الذين نتحدث عنهم – أولاد الفقراء والفقراء جداً كانوا يقبلون في المدارس مجاناً والذين فوق ذلك بقليل كانوا يدفعون ريال (عشرة فورت في الشهر) وفي مقابل ذلك كانوا يتلقون العلم والمعرفة والعناية الصحية ففي كل صباح يؤخذ التلاميذ المرضى بدفتر خاص إلى المستشفى للعلاج المجاني ويتم كشف عام سنوي بواسطة أطباء متخصصون على كل التلاميذ فتزال الاسنان المسوسة ويعالج الرمد والجروح.

وبعد إكمال الكُتَّاب (المدرسة الأولية) يبدأ تشعب الفرص هناك من يمتهن المهن اليدوية مهن الأباء كما ذكرت في أول السرد ومنهم النجباء الذين ينتقلون إلى المدارس الوسطى وهكذا.

فرص متساوية ورضى وسعادة أو عدم الاحساس بأي شقاء أو حرمان، وكذلك نساء أولاد الحلة أصدقاء وأحباب كأنهن شقيقات كانوا جميعاً في العطلات الصيفية يلعبون (الدافوري) في الشارع الرئيسي ويصنعون كرة (الشراب) من شراب قديم أما من شرابات موظف البريد أو الضابط المتقاعد أو عسكري البوليس ومع الدافوري قد يلعبون الكدة أو (البلي) أو ما يسمى الطقاشة والبلي كرات صغيرة مصنوعة من الزجاج الملون ونجد في أطراف الشارع أرض مسطحة نظيفة يرص فيها (البلي) ويستعمل الأولاد أما أصابعهم أو (جُلات) مستديرة من الحديد وتسمى (الطقاشة).

الأولاد كانوا يلعبون ويضحكون ويغنون ويتصايحون وربما يتشاجرون لأن الأباء كانوا يضحكون كذلك وبأصوات عالية ويتبادلون

النكات والقفشات على بعضهم البعض سعداء أو في الواقع لا يحسون بالشقاء ولا يعرفونه وربما لا يدركون أن ما هم فيه هو السعادة.

تجمع معظهم (الأباء) في المساء في منزل كمساري الترام فقد كان أكثر أهل الحي تديناً وكان ينتمي إلى إحدى الطرق الصوفية ويقرأ المولد النبوي في أمسيات الاثنين والجمعة. يجتمع معظم الأباء لصلاة المغرب والعشاء ويتبادلون الحديث ويتفاكرون ويتبادلون الأخبار يتحدثون عن أقتراب فصل الخريف وتجديد الزبالة على السقوف أو الحيطان ويتحدثون عن حر الصيف وانتشار الالتهاب السحائي ويتحدثون عن الشتاء وانتشار الحصبة بين الأطفال ويتحدثون عن الحرب العالمية وأخبارها وبعد صلاة العشاء يودعون بعضهم البعض ويعودن إلى منازلهم راضين بما انجزوا في يومهم آملين في رزق الغد والصحة والعافية.

أما أولاد الحلة ما بين السابعة والثانية عشرة فنجدهم حول عمود الكهرباء في ركن الحلة يمارسون ألعاب المساء فالدافوري والكدة والبلي من ألعاب النهار أما في المساء فهناك لعبة (الرمة وحراسه) ولعبة (طير يا طير) ولعبة (شليل) وقد تجد بعض أولاد الحلة المولعون بسرد القصص والحكايات والمبالغات عن أخبار (البعاعيت) و(الشواطين) و(الربابيط) و(السحرة) و(المجانين) وبعد التاسعة مساء يعود الأولاد إلى البيوت وقد اكتسوا بالتراب في ملابسهم وأجسامهم مرهقين إلى مضاجعهم ليناموا حتى الصباح.

الحرب على الأبواب والرجال يتحدثون عنها كل حسب معرفته وجميعهم يتحدثون وكأنها أحداث في عالم آخر قد لا تهمهم في قليل ولا كثير إلا أن ضابط الجيش المتقاعد يعرف ما هي الحرب فقد عاصر الحرب العالمية الأولى وهو ضابط صغير وعايش ثورة ١٩٢٤ وقد أصابه شيء من رشاشها وتقاعد في أول الثلاثينات عندما أصاب العالم الركود الاقتصادي وخفضت المرتبات وأحيل عدد من موظفي الحكومة إلى المعاش

قبل بلوغ سن المعاش. متطلبات الحياة محدودة وما لا تعرفه لا تفقده ولذلك ظل سكان الحلة في حالة رضى بحالهم يمارسون مهنتهم البسيطة ويعيشون على كسرة الفتريتة والملاح بلحم البقر والضأن في الأعياد والمناسبات والأطفال في صحة جيدة لا يشكون وقليلاً ما يبكون.

وبالرغم من ذلك لم تسلم الحلة من الأوبئة العامة التي تضرب المدينة والأمراض المستعصية التي في البلد فقد جاء وباء السحائي في أواخر الثلاثينات ومات علي أبن المنجد ومات عثمان أبن الطياني ومات إسماعيل أبن الزبال.

ثم أصاب الحي وباء السل، فقد كان السل ويسمى المرض البارد يصيب العديد من الناس وليس له علاج ويؤخذ معظم المرضى إلى (كرنتينة) حمد النيل في غرب أم درمان لا للعلاج فلم يكن هناك علاج ولكن لينتظروا الموت ويقل انتشار المرض بين الأصحاء.

مات حمد بالسل كما مات والده ومات عبدالرحمن أبن فاتل الحبال ومات دلدوم أبن الطياني ومات النفراوي وأخيه عبدالرحمن أبناء المنجد ومات محمد صالح الموظف.

وبالرغم من كل هذه الكوارث ظل سكان الحلة راضين مستسلمين لقضاء الله وقدره لا يضجرون ولا يشكون ولا يلعنون ويعتبرون كل ذلك جزءاً من الحياة فالموت هو نهاية الحياة سواء بالسحائي أو السل أو التايفويد أو الملاريا أو حتى مرض الجزام فقد أصيب به بعض أهل الحي وعوملوا دون نفور ودون خوف ودون كراهية.

إيمان عميق ورضى لم يعرف أحد نظرية مالتوس في السكان وحتى الموظف أو الضابط المتقاعد أو كمساري الترام المستنير كلهم لم يسمعوا بمالتوس ولكن في دخيلة أنفسهم ربما يعتقدون أن الأمراض والأوبئة والحروب بعض وسائل الله سبحانه وتعالى لتقليل عدد السكان حتى يمكن

للبعض أن يعيش ويذهب البعض إلى الدار الآخرى وبحالهم ذلك ربما معظمهم أن لم يكن جلهم إلى الجنة.

تلك هي الصورة العامة أو الخلفية التي نشأ فيها أولاد الحلة والحلة ذاتها لا تختلف عن معظم (جلال) - جمع حلة - أم درمان كلهم أو جلهم فقراء أو فقراء جداً أو أقل قليلاً من الفقراء وكلهم راضون مستسلمون لقضاء الله وقدره. أما الحكومة - والتي كانت تسمى حكومة الاستعمار - فهي بالنسبة للفقراء تقدم لهم التعليم لأبنائهم والعلاج المجاني في مستشفياتها والأمن والسلامة بواسطة البوليس والخفراء ذلك كله قبل أن تنشب الحرب العالمية الثانية أي حتى أواخر الثلاثينيات من القرن الماضي.

والحلة مليئة بالأحداث والطرائف والمفاجآت فالحياة رغم الفقر والهدوء لا تسير على وتيرة واحدة وأولاد الحلة الذين هم نتاج هذا التكوين البسيط في شكله والمعقد في تطبيقاته هذا التكوين يعتبر صورة إنسانية رائعة حتى للدارس الذي يبحث عن حياة البشر أو العالم الذي يبحث عن بواطن الأمور أو المؤمن الذي يتفكر في خلق السموات والأرض كل هؤلاء يعتبر النسيج له روعته وعبرته ودروسه والذي يثبت ذلك أو يؤكده ودون تدخل من أي جهة من الجهات أن أولاد الحلة الذين يعتبرون النتاج الطبيعي للحلة هؤلاء الأولاد يسيرون ويتطورون وتزداد معرفتهم ربما دون وعي منهم حتى يتم الوصول إلى الغايات التي يرسمها رب الكون العظيم.

نفس الطينة ونفس الفرص ونفس الظروف. كان من المفروض أن يكون نتاجها واحداً أو متشابه ولكن لحكمة يعلمها الله أنه بالرغم كل ذلك فإن نتاج الحلة من أولاد الحلة وبمرور الزمن تباين شكله وخلاصته.

وبالرغم من نفس الفقر وشدة الفقر والأحسن قليلاً من الفقر بالرغم من ذلك فإن الناتج الفردي اختلف بين أولاد الحلة ولكن الناتج الكلي إذا قسناه بالتقدم والتأخر والفشل والنجاح نجده نتاجاً واحداً.

ولكن من أولاد الحلة التي ذكرنا خلفيتهم هناك (برجل) أبن الطياني وبائع القش وسمى برجل لسيقانيه المُقَّوستين وهناك (حنانيف) لأنفه

الأفطس وهناك (التسة) لأنه كان غشيماً الغنماية تأكل عشاه وهناك آخرون كثر أحمد عمر وعبدالرحمن وحسن وعبداللطيف وعلي وعبدالسميع وإبراهيم وصديق والسيد ومحمود وعبدالحكيم وشاذلي وبرعي ومحمد الأمين.

كلها أسماء موجودة في جميع أحياء أم درمان وبنفس الصورة ونفس الظروف ونفس الأحداث ومن هناك ستتابع مسار حياة عينة منهم من أول وجودهم في الحلة إلى أخر خروجهم من الحلة ثم تتابع حياتهم مرحلة مرحلة فكهذا عاش أولاد الحلة في أم درمان.

نبدأ قصة أولاد الحلة أو قصص أولاد الحلة (ببرجل) الذي كان منزلهم في أول الشارع وكان والده طياني ويبيع القش (الحمرة) بعد أن يقضي برجل بعض الوقت في الخلوة لأنه لم يواصل تعليمه وكان وحيد والده فعمل معه في بيع القش والطين وتعلم صنعة الطياني لكن من والده ولكن ظل برجل الشقي كثير اللعب كثير المشاكسات مع أبناء الحي الآخرين وكان مع (برجل) سيقانه يجيد لعبة الدافوري بكرة الشراب لعب البلي وظل برجل مع والده حتى توفاه الله واستمر برجل يعمل طياني في الحلة ويبيع القش ولكنه أخلد إلى بعض أصدقاء السوء فصار يتعاطى (البنقو) وكان ذلك أمر شائع في ذلك الزمان وهناك أخوان في حلة سوق القش المجاورة لحلة برجل يمارسون بيع البنقو والدنيا خريف والجو صحو ذهب برجل مع بعض رفاقه إلى شاطئ النيل عند منطقة النمر قبالة مكان التلفزيون الحالي وجلسوا وكانوا ثلاثة يتعاطعون البنقو ويضحكون على نكات وطرائف تافهة لا تضحك الواعي ولكن تضحك المسطول وظلوا يضحكون ويتقاسمون أنفاس سجارة البنقو حتى منتصف الليل ثم خيل إليهم أن بإمكانهم السير على سطح النيل فقاموا ثلاثتهم يتقدمون إلى النيل وساروا يغوصون إلى الداخل وهم يضحكون بأصوات عالية سمعها بعض المارة وظنوا أن هناك من يسبح في النيل ولكن الذي حدث أن أبتلع النيل برجل وصاحبي برجل

ولم يعد برجل إلى بيع القش ولا صنعة الطين وحزن رفاق برجل من أولاد الحلة على برجل فبالرغم من كل أخطائه كان له أصحاب وأحباء.

جار والد برجل هو الدقاق الذي يحمل الذرة إلى الطاحونة ليطحنه ثم يعيده إلى أهله مقابل بعض الملاليم ولكن حنانيف ابن الدقاق كانت له فلسفة خاصة رغم أنه لا يعرف ما هي الفلسفة ولكن كان له رأي معين في تسيير حياته فبعد أن أكمل الخلوة مثل جاره برجل لم يمتهن مهنة أبيه الدَّق فقد كان رأيه يكفي الإنسان أن يهتم بمعيشته ولا يشغل نفسه بمعيشة الحمار فقد كان للدقاق حمار لابد له من عليقة ولابد له من مربط ومتطلبات أخرى ولذا فقد قرر حنانيف أن يدخل السوق وعمل مع تاجر تشاشة والتشاش هو من يبيع البهارات متطلبات المنزل من بصل وتوم وخلافه وكان الرجل كريماً وكان حنانيف نشطاً قوياً فنال رضى الرجل وظل يعمل معه لبعض الوقت ويقتصد حنانيف من دخله المتواضع وبعد عدة سنوات قرر صاحب التشاشه أن يتقاعد فقد زاد عليه مرض السكر ولم يكن له ولد فباع محل التشاشه إلى حنانيف ولم يكن يمتلك حنانيف ثمن الدكان فرضى صاحب الدكان أن يقبل جزءاً من الثمن على أن يدفع له حنانيف الباقي على أقساط شهرياً وزاد حنانيف من اجتهاده وتمكن في فترة معقولة من سداد حقوق التاجر وأصبح حنانيف أحد تجار التشاشه في أم درمان ثم تحسن حاله وتزوج وكانت له أختين واصلتا الذهاب إلى المدرسة حتى أكملتا كلية المعلمات وعملتا في التدريس فتحسن دخل الأسرة وانتقلت الأسرة من مرحلة الفقر الشديد إلى مرحلة الفقر ثم إلى مرحلة ما أحسن من الفقر واصبح للاسرة وضع متقدم في الحلة.

في هذا الأثناء وأولاد الحلة يكبرون وتتشعب بهم الطرق وتتغير بهم الأيام شبت الحرب العالمية الثانية وسمع أولاد الحلة بألمانيا النازية ودول المحور والحلفاء ومع نشوب الحرب أتخذت الحكومة اتجاهاً آخر وظهرت إذاعة أم درمان. والطريف في الأمر أن حكومة الاستعمار كانت تعرف أن أم درمان هي السودان وليس الخرطوم فركزت نشاطها الدعائي في أم

درمان ولأول مرة يسمع سكان أم درمان وفي ميـدان البوسـتة مكبـرات الصوت تقول هنا أم درمان ويعقب ذلك سماع الأخبار ومع الأخبار جـاءت الأغاني وسمع أهل أم درمان أصوات سرور وزنقار وغيرهم ثـم جـاءت أغاني عاشة الفلاتية تمجد رجال قوة دفاع السودان وتقول (يجوا عايـدين الفتحوا كرت بالليل) (ويجو عايدين الشايقي وحسن الزين).

الحرب جاءت باشياء جديدة لم يعرفها الناس من قبل جاءت بالتموين وبطاقات السكر والأقمشة وأصبح حظ الشخص رطلين فقط من السكر فـي الشهر تصرف من أماكن معينة وثمن رطل السكر قرشان إلا ربـع وكـذلك الأقمشة المستوردة.

وقع الحرب وظروفها لم يكن قاسياً على أهل أولاد الحلة بقدر قسوته على الأغنياء فقد كان استهلاك الأسرة في الحلة لا يزيد كثيـراً عـن مـا حددته بطاقة التموين كما جاءت الحرب بفرص جديدة للعمل لبعض أبنـاء الحي فقد عمل بعض النجارين والحدادين والكهربجية في منـاطق الجـيش وقد جاء الأمريكان إلى وادي سيدنا وأقاموا قاعدة كبرى. ووصـلت آثـار الحرب إلى أم درمان فقد حدثت غارة جوية حيث جاءت طائرة مـن جهـة الشرق واسقطت قنابل على أم درمان فقد كانت واحدة في مدرسة الأحفـاد بالقرب من الضبطية وواحدة في العباسية أصابت منزلاً به امرأة في بيـت الوضوع كما أصابت حمار كلتوم ست اللبن وكان في ذلك كثير من النوادر، وإذا تابعنا سير أولاد الحلة نجد المنزل المجاور لمنزل الدقاق والد حنانيف هو منزل الحداد البلدي ولكن الله سبحانه وتعالى له حكمـاً لا تحـصى ولا تعد.

فقد كانت ربة المنزل أم الأولاد والبنات وزوجة الحداد امرأة رائعـة الجمال سمحة طيبة راضية عاملة باسمه خلفت الأولاد والبنات وكانوا كثـر أكبر الأسرة ولد كان ذكياً نابغاً بين أقرانه منذ أن كان في المدرسة الأوليـة أحب القراءة وبرع في الرياضيات وانتقل من المدرسة الأولية إلى المدرسة

الوسطى ثم إلى المدرسة الثانوية وكان من أفضال عهد الاستعمار أن أبناء الفقراء النابغين يتعلمون بالمجان بل تُمنح لهم إعانات مالية وأزياء اللبس في المدرسة فوجد ذلك الابن البكر الفرصة حتى وصل إلى كلية الهندسة في كلية الخرطوم الجامعة وتخرج مهندساً والرائع في الأمر أن بقية أخوانه حذوا حذوه في النبوغ في الرياضيات وصار معظمهم مهندسين.

أبناء الحداد لم يجدوا لهم أي فرصة للتدليل بل كان الابن البكر في العطلات المدرسية يعمل مع والده في محل الحدادة ويتولى نفخ (الكور) لوالده ويضرب الحديد الساخن بالمذربة والشاكوش وعندما يشتد الصيف يشفق عليه والده من مواجهة النيران فكان يعمل مع خيلانه في بيع الليمون في سوق أم درمان.

هناك مثل سائر يتناقله أهل الزمان الماضي يقول (يكبروا الصغار ويزيلوا الغبار) والذي حدث أن كبر أولاد وبنات أسرة الحداد وقد حباهم الله بالذكاء والجمال والتوفيق وزال الغبار وتغير حال الأسرة، ترك الرجل الصابر المكافح المؤمن موقد النيران وإحمار الحديد وخلع الملابس السوداء المتسخة ولبس القفطان والعباءة وتحدث بصوت عالي وتصدر المجالس وذاق طعماً آخر للسعادة فقد كان راضياً بالحدادة وسعادته التي كان فيها الزوجة الجميلة المكافحة والسكن المتواضع والأسرة المؤمنة الراضية ثم جاءته سعادة الدنيا وانطبق عليه المثل:

نعم الاله على العبادة كثيرة وأجَلّهن نجابة الأبناء

وصار أحمد وأخوانه مضرب الأمثال لأولاد الحلة سلوكاً ومعرفة وتواضعاً وتواصلت نعم الله على أحمد الأبن البار وصل إلى درجة وكيل الاشغال ثم انتقل إلى الخليج فلقى التقدير ليس لعلمه ومعرفته فقط بل لاخلاقه وسماحته وتواضعه وخلقه.

تزوج فانتقل النبوغ والذكاء لأبنائه فقد تزوج أحدى بنات أقربائه فكانت له نعم الزوجة ونعم الأخت ونعم الوالدة.

ولكن كما للحياة حلاوتها وسعادتها كذلك لها أحزانها ومصائبها فقد فقدت الأسرة أحد أبنائها وهو يدرس في الخارج وفقدت أثنين من بناتها فاختلط الفرح بالحزن والدموع بالضحكات ولكن ظل أحمد وكل أخوانه وأخواته نوارة الحلة ومفخرتها.

أما الجار الآخر (الحلبي) مبيض النحاس فقد حذا أبناؤه حذوه فتلك مهنة الأسلاف وظلوا يعملون في تبيض النحاس وكلما أطل فرح على أسرة سارعوا في دعوة زوجته الجاز - وهذا اسم زوجته والتي كانت أكثر شهرة منه في الحي - سارعوا في دعوة زوج الجار لتبيض نحاس الأسرة قبل المناسبة المنتظرة.

أما المنزل المجاور (للحلبي) ففيه عبداللطيف. عبد اللطيف هذا لم يكن ذكياً ولكنه كان نشطاً وقوياً وكان يتقلب على أقرانه في لعب (حرينا) وهي مساجلة بين مجموعتين تهاجم بعضها ولكن كل واحد يقف على ساق واحدة ويمسك الساق الأخرى بيد واحدة ويصارع باليد الأخرى حتى يضطر غريمه أن يسقط ساقه المرفوعة إلى الأرض أو يسقط هو كلياً إلى الأرض فيخرج من اللعبة. عبداللطيف خرج من الخلوة وعمل عاملاً في المستشفى وظل كذلك لسنين طويلة بدءاً بنظافة العنابر ثم تعلم شيء من التمريض الذي يحتاج إلى قوة العضلات.

كانت في الجانب الآخر من الحلة عثمان الذي كان منذ صغره متفوقاً في دروسه. أتم المدرسة الأولية وانتقل إلى مدرسة أم درمان الوسطى الحكومية ثم إلى مدرسة وادي سيدنا الثانوية وقضى سنة في كلية العلوم بجامعة الخرطوم وعندما لم يقبل في كلية الطب وكان الطب رغبته الأولى لضيق الفرص توجه إلى مصر حيث كانت الفرص أكبر وعاد من مصر بعد سبع سنوات ليعمل في نفس المستشفى الذي كان يعمل به عبداللطيف وعندما التقيا سقطت كل الحواجز الاجتماعية وكان لقاء اثنين من أولاد الحلة. تعانقا وضحكا وحولهما عيون مُستغربة من عمال وموظفي المستشفى وهكذا كان حال أولاد الحلة.

إثنان آخران كان سر الختم بن الطياني في الجانب الآخر من الشارع الرئيسي في الحلة. كان صغير الحجم وقف نموه وهو في العاشرة لم يزد طوله عن أربعة أقدام ونصف ولكن كل شيء آخر لديه طبيعي. لم يواصل الدراسة بل خرج من المدرسة وعمل مراسلة في إحدى المصالح الحكومية ومرّ زمان وهو ينتقل من مصلحة إلى مصلحة إلى أن وصل ليكون من كبار مُراسلات وزارة المالية.

وفي الشارع المقابل بل على الأصح في الزقاق الموازي للشارع الرئيسي في الحلة نشأ عبدالله وتقدم عبدالله من الخلوة إلى مدرسة أم درمان الأولية ثم إلى مدرسة أم درمان الوسطى ثم إلى مدرسة أم درمان الثانوية وكانت المدرسة الحكومية الثانوية الوحيدة ثم انقسمت مدرسة أم درمان الثانوية إلى مدرسة وادي سيدنا الثانوية ومدرسة حنتوب الثانوية وذهب عبدالله إلى مدرسة وادي سيدنا ثم التحق بعدها بجامعة الخرطوم والتي كانت تسمى كلية الخرطوم الجامعية وبعد أن أكمل كلية الآداب التحق بوزارة المالية وابتعث إلى بريطانيا ودرس ثلاث سنوات في مدرسة الاقتصاد بجامعة لندن وكان قد تزوج قبل سفره إلى بريطانيا من إحدى فتيات حي الضبطية وعاد من بريطانيا وعمل في وزارة المالية وتدرج في وظائفها حتى صار وكيلاً لوزارة المالية وفي نفس الوقت كان يعمل في الوزارة سر الختم أحد مراسلات الوزارة ولكنه – أي سر الختم – هو ود الحلة قبل أن يكون مراسلة في وزارة المالية وكلما يلتقي عبدالله بسر الختم في وزارة المالية يتصافحان ويضحكان وتسقط كل الرسميات والشكليات ولا تبقى إلا صفة أولاد الحلة.

ظلت الحلة تتطور من أوجه عديدة، فكمساري الترام ظل يتفقه في الدين وفي الطريقة الاسماعيلية وكان محط أهل الحي يحضرون إلى داره في المساء لقضاء صلاة المغرب والعشاء ويتبادلون الأخبار والحديث عن الحرب وربما عن السياسة والغالب عن الدين ثم أقام خلوة صغيرة انتظم

فيها بعض أبناء الحلة القريبين من داره فقد كانت هناك عدة خلاوي في الأحياء المجاورة.

وخرج من تلك الدار أثنان الأول أبن أخت صاحب الدار بعد أن أجاد حفظ كتاب الله التحق بالمعهد العلمي في أم درمان وقد كان مكانه مسجد أم درمان الكبير وواصل دراسة الفقه والتوحيد واللغة العربية وكل علوم الدين حتى تحصل على الشهادة الأهلية وهي تمنح بعد إكمال السنة الثامنة في المعهد وكان بإمكانه مواصلة الدراسة حتى نيل الشهادة العالمية ولكن جاءت الفرصة عندما فتحت مصر أبوابها للطلبة السودانيين فتقدم أحمد – الذي صار شيخ أحمد – إلى امتحان المسابقة لدخول كلية دار العلوم بجامعة القاهرة وفعلاً كان من أبرز الناجحين وأكمل كلية دار العلوم في مصر وعاد إلى السودان وعمل في التدريس ثم كان من أول من ابتعث إلى أمريكا لدراسة علم يسمى (فوناتك) وهو تخصص في تعلم اللغات للذين تكون اللغة أجنبية لهم وعاد وواصل دراسته حتى تحصل على درجة الدكتوراه وصار من كبار العلماء لغة وديناً.

أما الآخر فهو ابن (الشيخ) فقد تحول لقب صاحب الدار ليصير شيخاً أما أبنه فقد أكمل تعليمه ثم تخصص في الإعلام وصار من أميز رجال الإعلام وعمل في الإذاعة وفي الصحافة.

في الجار الآخر بعد منزل (الشيخ) كان هناك أربعة من أولاد الحلة توفي والدهم وتركهم صغاراً وعكفت والدتهم على تربيتهم بكل صبر وكفاح حتى أشتهرت واحتلت لها مركزاً مميزاً في الحلة ولقيت احترام الرجال في الحلة قبل النساء. توفي أحد الأبناء غرقاً وواصل الثلاثة الدراسة كان أكبرهم (م) متفوقاً في دراسته منذ المدرسة الأولية وكان بإمكانه أن يذهب إلى بخت الرضا ليكون مدرساً في مدرسة أولية لكن أصرت والدته ليواصل دراسته فانتقل إلى مدرسة أم درمان الوسطى ثم الثانوية ثم وادي سيدنا ثم جامعة الخرطوم وكان يتمنى أن يكون طبيباً لكن ظروف العائلة وطول كفاح

الوالدة وظهور فرصة افتتاح الكلية الحربية لأول مرة التحق بالكلية الحربية وكان أول دفعته وتدرج في القوات المسلحة إلى رتبة العميد ثم عمل مستشاراً في الحرس الوطني السعودي برتبة اللواء وقبلها تدرج في العمل السياسي حتى صار سفيراً ثم وزيراً للداخلية. وإذا به يلتقي بأحد أولاد الحلة ضابطاً بالشرطة وتسقط كل القيود ويتعانقا تحت أنظار عساكر الشرطة وضباطها ولم يبق سوى ولدان من أولاد الحلة.

أما الأبن الثاني الياس فقد سلك نفس طريق أبن أخت الشيخ المجاور وبعد المدرسة الأولية انتقل إلى معهد أم درمان العلمي وهو في السنة السادسة في المعهد دخل امتحان المسابقة ونجح فيه وسافر إلى مصر ليلتحق بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، ثم عاد إلى السودان وعمل بالتدريس وهو في تلك المهنة أشرف على تدريس العديد من أبناء أولاد الحلة في مدرسة المؤتمر وغيرها من المدارس.

أما أصغر الأولاد فقد وجد الفرصة أوسع ممن سبقوه فقد تحسن حال الأسرة بعد أن عمل الأخ الأكبر في الجيش، فبعد أن أكمل المدرسة الأولية في أم درمان انتقل لمدرسة أم درمان الوسطى ثم إلى وادي سيدنا وعندما لم يجد الفرصة لدخول كلية الطب بجامعة الخرطوم لضيق الفرص سافر إلى مصر بمساعدة أخيه والتحق بكلية الطب بجامعة الاسكندرية وعاد منها طبيباً إلى السودان وعمل في مستشفيات السودان ثم سافر إلى بريطانيا وعمل في مستشفياتها وتخصص في أمراض النساء والتوليد وجاء بزمالتها وعمل في عدد من مستفشيات السودان في الجنوب وفي كردفان وفي الشمالية.

تزوج الأخ الأكبر من إحدى بنات حلة مجاورة وتزوج الأستاذ من إحدى بنات حي آخر في أم درمان وتزوج الأخ الأصغر أبنة أحد أبناء الشمالية وتغير حال الأسرة علماً ومعرفة وذرية ومستوى.

أما المنزل المجاور فهو منزل ضابط الجيش المتقاعد وكان به أربعة أولاد أيضاً وكان حال الأسرة خارج نطاق الأسر الفقيرة جداً أو الأسر الفقيرة ولكن قيام الحرب وشح المواد ووضع معظمها في التموين جعل حياة الأسرة قريبة جداً من الأسر الأخرى في الحلة ومع ذلك ظل الأولاد لا فرق بينهم وبين بقية اولاد الحلة في شيء، كانوا يلعبون الدافوري مع أولاد الحلة ويتسخون بتراب الحلة وفي المساء – وكان عمود النور في ركن منزلهم – كانوا يلعبون مع أولاد الحلة نفس ألعاب المساء ويعودون وأجسادهم وملابسهم مليئة بالتراب.

حسن بعد أن أكمل كتاب العباسية في أم درمان التحق بمدرسة الأحفاد الوسطى ثم منها عمل في مصلحة الإرصاد وتحصل على دراسات مكثفة في الارصاد وعمل في مناطق متعددة من السودان حتى الجنينة في أخر دارفور وكان حسن من أبرز أولاد الحلة في لعبة الدافوري وهو الاسم الذي يطلق على كرة الشراب وفي المدرسة كان من أبرز لاعبي كرة القدم وكان رياضياً.

أما الأبن الثاني فقد التحق بمدرسة الاقباط المتوسطة بعد أن أكمل المدرسة الأولية ثم انتقل إلى مدرسة الاقباط التجارية في الخرطوم ودرس المحاسبة وعمل في إحدى الشركات الكبرى وتزوج إحدى بنات الحلة وانجب واستقر.

أما الابن الثالث فقد أختار مهنة والده بعد أن أكمل المدرسة الثانوية التحق بالكلية الحربية وعمل بها ضابطاً إلى أن وصل إلى رتبة اللواء وعمل مُلحقاً عسكرياً للسودان بالقاهرة وتزوج إحدى بنات عمومته من الخرطوم بحري وأنجب ولدين وبنت واصر الولدان على الالتحاق بمهنة والدهما وأصيبا في العمليات العسكرية في الجنوب وعادا إلى العاصمة وواصلا الحياة.

أما الأبن الرابع فقد أكمل تعليمه الثانوي والتحق بأحد البنوك وعمل فيه فترة من الزمن ثم عمل محاسباً في إحدى الشركات وتزوج هو أيضاً من إحدى بنات أبناء عمومته في أم درمان وأنجب واستقرت به الحياة.

والملاحظ أنه حتى هذه المرحلة من مراحل أولاد الحلة أن مستوى حياة أولاد الحلة في تقدم وتطور مستمر والعديد من الأسر تحولت من حالة الفقر الشديد ربما إلى حالة الفقر وربما إلى ما بعد الفقر وحتى أصبحت أسر موسرة عمدت إلى تغيير المنازل من منازل الطين والتي كانت غالبة في الحلة إلى منازل الطوب الأحمر وانتقل العديد بعد أن توسعت الأسر إلى مناطق السكن المتقدم مثل العمارات والرياض والطائف وغيرها.

ولو بحثنا في العنصر الأساسي في هذا التغير إلى الأحسن نجد أن التعليم لم يكن التعليم في مفهوم أهل الحلة أنه وسيلة إلى الثقافة والمعرفة بل معظم أهل الحلة ينظرون إلى التعليم بأنه وسيلة من وسائل تحسين حالة الأسرة المعيشي بل إلى أنه الوسيلة الأساسية إلى ذلك التحسين.

الحلة مليئة بأولاد الحلة وما أخطه هنا لن يكون سوى عينة من أولاد الحلة وفي نفس الوقت عينة من كل حلال أم درمان في ذلك الوقت الفقر الشديد ثم الفقر ثم ما هو أحسن من الفقر قليلاً ولكن الطابع الأساسي هو الرضى والسعادة والهدوء والتواضع لا حسد ولا غيرة ولا ظلم ولا تعدى.

في إحدى أزقة الحلة نشأ سليمان. توفى الوالد مصدور والأخ الأكبر كذلك وترك سليمان المدرسة وعمل صبي حداد في ورشة ناصر الحداد المشهورة في المنطقة الصناعية وتعلم فن الحدادة الراقية وبرز فيها ونشأ سليمان قوياً مؤمناً مكافحاً ضاحكاً ووفقه الله فانشأ ورشته وطورها وحدثها ورفع حال الأسرة ثم تزوج سليمان وانجب وعلم أولادها وسافر بعضهم إلى الخارج وأقام سليمان لأسرته منزلاً ممتازاً وهكذا شأن أولاد الحلة.

كان من بين أولاد الحلة عفاريت وشواطين وضاحكين ومن طرائفهم في ذلك الزمان كل بيوت الحلة من الطين كما ذكرت ومطلية بالزبالة وقبل وصول الخريف بفترة من الزمن يجري أصحاب المنازل الكشف على السقوفات والحيطان ويجلبون الزبالة بالجوالات من أناس يجمعونها من الزاريب والأسواق ثم يأتي الترابي بالتراب الخاص من خلاء أم درمان الواسع وهناك عدد من الزبالة المعروفين وأشهرهم والد خوجلي وخوجلي وأخيه محمد والذين يسكنون في حي الشيخ دفع الله.

ومن طرائف أولاد الحلة أن أحد أصحاب المنازل تأخر في التحضير لتزبيل منزله أو ربما تقدم الخريف قليلاً وعندما جهز صاحب الزبال وجاء الزبال وأعوانه وقام بتزبيل المنزل تجمعت الغيوم في ذلك اليوم – يوم التزبيل – وتمكن الزبالون من أجراء عملية التزبيل ولكن لا زالت الزبالة طرية ولم تنشف ومعنى هذا لو نزلت الأمطار فستغسلها ويضيع كل الجهد الذي بذل لصاحب المنزل، عم حسن يسكن معه في المنزل ورغم تقدم سنه إلا أنه كان قوي البنية صحيح الجسم وعندما وجد هذا الموقف الحرج السماء ملبدة بالغيوم والزبالة تم بسطها على الحيطان ولا زالت رطبة والشيخ الكبير كان لديه قليل من (الخرف) فما كان منه إلا أن حمل (هبابة) من داخل المنزل ووقف في الشارع وصار (يهبب) الحائط عله ينشف الزبالة.

مرَّ به أحد أولاد الحلة (العفاريب) فسأله ماذا تصنع يا عم فقال له العم باستغراب (أنت ما شايف دي؟ كان نزلت دي ما بتخلي دى سلطة) فضحك ود الحلة العفريت وقال للشيخ والله تمام يا عمي سلطة ثم سريعاً ما نقل الحادث لبقية أولاد الحلة وجاءوا عشرات يشاهدون عمي سلطة وهو (يهبب) الحيطان وأطلقوا على الرجل (عمي سلطة) وانفعل عمي سلطة وصار يلاحق أولاد الحلة وبذلك شجعهم على معاكسته وأصبحوا كل ما يرونه في الشارع ينادونه (عمي سلطة) وهو يثور وينفعل.

لأولاد الحلة طرائف كثيرة فإذا دخل أحد معتوهي أو مجانين أم درمان المشاهير إلى الحلة أمثال شيخ موسى أو بت التور أو كرب أو قحف يجتمع حوله أولاد الحلة ويتجاذبونه بالهتافات فيزيد انفعال المعتوه ولكن كانوا يخشون حاج موسى، فقد كان يحمل عكازة غليظة يضرب بها براميل الوسخ القائمة في أطراف الشوارع.

هناك عدد من أولاد الحلة رفضوا مواصلة الدراسة في المدرسة وكانوا يهربون خارج أم درمان وفي الغالب إلى الخرطوم بحري وكان أحمد محمد طه حريصاً على الضغط عليهم ليواصلوا الدراسة فكان يلاحقهم حتى الخرطوم بحري ثم يقودهم أمامه وهو يركب دراجة ويحمل عصاة خيزران وبالرغم من ذلك لم يوفق في إجبارهم مواصلة الدراسة وكعينة من هؤلاء خضر الذي ترك المدرسة وعمل في الوابورات وتقدم في عمله ووفق ولكن على مستوى عامل وابورات ولكنه أدرك أن تركه للمدرسة كان خطأ كبيراً فحرص عل تعليم أبنائه وأخذ الدرس وصار أحد أبنائه مديراً لإحدى الشركات الكبرى.

وعكس ذلك كان (السيد) الذي كان متفوقاً في دروسه ونجح في دخول مدرسة أم درمان الوسطى بأن كان أحد الثلاثة الأوائل في اللجنة وقبل في مدرسة أم درمان الوسطى بربع المصاريف وهي عبارة عن جنيهين ونصف في العام وكان أخاه الأكبر يعمل مراقباً في مصلحة التنظيم فرفض أعطاءه ذلك المبلغ فغضب (السيد) وترك المدرسة وسافر إلى عطبرة وعمل في مصلحة السكة الحديد إلى أن وصل إلى سائق قطار ولكنه أخذ الدرس وأهتم بتعليم أولاده بعد ذلك.

ومن روائع السيد كان منذ طفولته يهوى تربية الحمام وله برج كبير وتطورت هذه الهواية فصار مرجعاً لأنواع الحمام من البلدي والغطاوي والرومي واليمني والرقاص والكنج وصار يشترك في معارض هواة الحمام العالمية خارج السودان كما أنه كان لديه هواية تربية أنواع من الحيوانات

مثل الغنم (الساهلين) وغيرها والتي تعطي كمية كبيرة من اللبن. وهكذا لم تقف الظروف الصعبة وعدم مساعدة الأهل في بروز بعض عبقريات أولاد الحلة.

كذلك كان سنوسي والده جزار في سوق الجزر في أم درمان وواصل تعليمه في الخلوة وبعض الأولية ثم دخل إلى السوق وصار مثل أولاد الجزارين يبيع (الطايوق) وهو الذي يستعمل في ذلك الزمان لمسح (الدوكة) التي تعاس فيها الكسرة.

سنوسي تطور مثل أبن أي جزار ولكنه كان صادقاً ومكافحاً ولديه الذكاء الفطري ومن خلال عمله في الجزارة وفقه الله إلى معرفة أن عصب (الكتكت) والذي يستعمل في خياطة الجراحات الداخلية في العمليات يستخرج من أمعاء الضأن ومن خاصيته أن يذوب داخل جسم الإنسان ولا يحتاج إلى فك مثل العصب الذي يستعمل في الجراحات الخارجية.

عمد سنوسي إلى اجراء الاتصال وتوصل إلى كيفية تصدير الأمعاء إلى الخارج وسبق فيها الآخرين وبذلك تمكن من الوصول إلى الثروة وتزوج إحدى قريباته وأنجب ووفق.

وهكذا لم يكن حرمان فرص التعليم العالي عقبة في توفيق أولاد الحلة الذين كافحوا واجتهدوا ووفقهم الله رغم عدم وصولهم إلى التعليم العالي ولا حتى الأوسط.

تطور حال أولاد الحلة تطوراً تلقائياً دون تخطيط أو تنظيم ولكنه بالقطع يعتبر تطوراً فقد صار أبن الدقاق تاجراً وصار أبن الحداد مهندساً وصار أبن عامل الوابورات مديراً وصار أبن الضابط المتقاعد في رتبة صغيرة لواءً وصار أبن الزبال تاجراً مستورداً ونفس الوضع قد حدث لأولاد الحلة في كل حلال أم درمان وبنفس الصورة عبر التلقائية غير المخططة.

ومع التطور البشري تطور حال الحلة دخل النـور الكهربـاني إلـى معظم المنازل ثم إلى كل المنازل والماء إلى كل المنـازل وكـسدت مهنـة التزبيل فقد تغيرت معظم بيوت الحي من الطين إلى الطوب والحجر وجـاء شارع الأسفلت شاقاً الحلة وتغيرت أبواب السنط إلى الحديد والخشب.

كانت وسائل التنقل داخل وخارج الحلة أولاً الأرجل فكان سكان الحلة يمشون يومياً إلى السوق أو مكان العمل على الاقدام كان أمراً طبيعيـاً ثـم دخل (البسكليت) إلى بعض البيوت وخاصة بعض العمال فهو أسـرع فـي الوصول إلى مكان العمل وأكثر راحة من المشي على الأقدام ومـن جانـب آخر كانت هناك بعض الحمير عند بعض من تَخطي مرحلة الفقر هذا وهناك نوع آخر من الحمير كان موجوداً داخل الحلة وهي حمير نقل التراب إلـى أماكن البناء. ذلك النوع من الحمير صار يقل مع قلـة طلـب التـراب لأن الطوب حل محل الطين في إقامة المنازل.

عندما نتحدث عن أولاد الحلة لا يمكن أن نهمل آباء الحلة وأمهـات الحلة وبنات الحلة فهؤلاء جزء هام ولا ينفصل عن الحلة وأي تصرفات أو تغيرات في مسار أولاد الحلة لابد أن يكون مرتبطاً بآباء الحلـة وأمهاتهـا وبناتها وقد تحدث مناسبات سعيدة داخل الحلة مثل الزواج أو الختان وقـد تحدث مناسبات غير سعيدة مثل المآتم أو الأمراض وفي وسط ذلك كله نجد أن لأولاد الحلة دور فيه ودور إيجابي في كثير من الحالات.

أولاد الحلة هم الذين يقومون بحراسة بنات الحلة من الغُرباء الـذين يقدمون إلى الحلة في المناسبات السعيدة، وأولاد الحلة هم الذين يقومـون بتوصيل أقارب واصدقاء أهل الأفراح من النساء إلى منازلهم خارج الحلـة ويحدث ذلك في بعض الأحيان في أخر الليل وربما عنـد الأذان الأول فقـد كانت ليالي الغناء تبدأ بعد مغيب الشمس وتنتهي مع البيات.

أي واحد من آباء الحلة يعتبر والداً لأي مـن أولاد الحلـة يزجـره ويضربه ويتحدث إليه وينصحه وتعتبر كل أم من أمهات الحلة أم لكل بنات

الحلة والسمة الواضحة أن كل شخص في الحلة أب أو أم أو ولد أو بنت يعرف كل سكان الحلة بالاسم وبالشكل وبالحالة الاجتماعية وبالقرابة داخل وخارج الحلة.

لم يكن هناك منازل في الحلة مؤجرة إلى أناس من خارج الحلة كل سكان الحلة الفقير جداً والفقير وما بعد الفقر بقليل كل أولئك يمتلكون منازلهم الحداد والطيان والزبال والترزي والتاجر والموظف.

عندما تحدث وفاة في الحلة هناك منازل معينة تمتلك أدوات الحفر ولم تكن هناك إنارة في المقابر ولا حتى في الطرق وتحمل الجنائز على الأكتاف، ففي حالة الوفاة يتحرك أولاد الحلة دون توجيه من أي شخص إلى أحد المنازل التي بها أدوات الحفر ويحملون الأدوات في الظلام بعد صلاة الفجر مباشرة ويأخذون معهم أحد أقرباء المتوفي أو المتوفيه ليساعدهم على اختيار مكان القبر الجديد بالقرب من أقرباء المتوفي السابقين ويتم إعداد القبر.

وفي نفس الوقت يجلس بعض كبار رجالات الحلة ويحضر لهم طاقة الدبلان ويقوم أحد الخبراء – وهم كثر – بتفصيل الكفن إن كان لرجل أو أمرأة أو طفل وتتم الخياطة كما يتولى بعض رجال الحلة عملية غسل الجنازة إن كان رجلاً أو بعض نساء الحلة إن كانت امرأة ويتم كل ذلك في تنظيم وسرعة واتقان، وكأنما خطط له ومع شروق الشمس يتحرك الموكب حاملين الجنازة. ومن يحملها سوى أولاد الحلة.

العرف السائد في ذلك الزمان أن أهل المتوفي تطفأ النار في دارهم وتتولى أسر الحلة أولاً احضار الشاي في الصباح ومعه ربما (اللقيمات أو المنين) ثم تأتي صواني الفطور في موعده والغداء في موعده والعشاء في موعده ويقدم للناس الشاي والقهوة كل ذلك من أهل الحلة وليس من أهل المتوفي ويستمر هذا الأمر على الأقل لثلاثة أيام عند الذين يتبعون تقليد الأنصار وقد يستمر ذلك إلى خمسة أو سبعة أيام إذا كانوا غير ذلك أو إذا كان بعض أقرباء المتوفي اللصقين غياب عند حدوث الوفاة ومهما طالت

مدة الفراش يظل جيران الحلة هم الذين يتولون القيام بكل احتياجات المأتم كل حسب مقدرته وذلك كان أحد أسس التكافل داخل الحلة.أما في حالة الأفراح فالأمر يختلف فصاحب الفرح يكون قد جهز نفسه لإقامة الفرح سواء أكان زواجاً أو ختاناً وذلك يختلف عن المأتم لأن الوفاة في كثير من الحالات تكون مفاجأة لأهل المتوفي حتى لو كان في حالة مرض طويل.

وتقدم الدعوات إلى الحضور إلى أهل الحلة وإلى آخرين وهناك تكون مهمة أولاد الحلة الرئيسية وحسب سنهم فهناك من يتولون الوقوف حول مائدة الطعام وتقديم الأصناف التي توضع وسط المائدة المستديرة والتي حولها عشرة كراسي ويتولى واحد من أولاد الحلة وضع الصنف وبعد أن ينتهي المدعون من إكمال مافي الصحن يتولى آخر من أولاد الحلة رفع الفارغ على أن يستبدله الآخر بصحن آخر وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى تقدم التحلية.

بعد الأنتهاء من الأكل يقوم المدعوون إلى أماكن معينة ويتولى أولاد الحلة الأصغر من أولئك الذين قدموا الطعام بغسل أيادي الضيوف بأباريق وطشاطة من النحاس أو الصفيح ثم يقدم الشاي أو القهوة للضيوف بواسطة جماعة أخرى من أولاد الحلة.

إلى هنا ينتهي تكريم الضيوف من جانب أصحاب الفرح وتوضع المقاعد بطريقة ينتهي المدعو إلى المرور على اخر مرحلة وهي مجموعة من رجال الحلة تجلس على سجاد أو برش أو كراسي وأمامها كشوفات يتقدم المدعو ويضع مشاركته المالية لأهل الفرح ويسجل اسمه في دفتر خاص وامامه المبلغ الذي دفعه وكثيراً ما يكون المبلغ مساوي إلى مبلغ آخر دفعه صاحب الفرح إلى المدعوِ في مناسبة سابقة ولكن في هذه الحالة يجري العرف بأن يزيد المدعو قليلاً على ما دفعه له صاحب الفرح، وهذه صورة أخرى من صور التكافل بين أهل الحلة.

***

(٢)

لأولاد الحلة مناشط كثيرة تختلف باختلاف السن والوقت من السنة والوقت من اليوم وكل تصرفاتهم كمجموعات وتلك أولى مراحل النمو الجماعي بين أولاد الحلة.

للصغار ألعاب معينة في الصباح أو المساء على اعتبار أن وقت الخلوة أو المدرسة الأولية خارج الوقت الذي ينصرف فيه أولاد الحلة.

الخلوة وقتها ممتد ليس لها عطلة صيفية مثلاً إلا إذا رأت السلطات الصحية في الصيف عندما ينتشر الألتهاب السحائي أما المدارس الأخرى من أولية ووسطى فتلك لها موعد معين في السنة تقفل فيه ويعاد فتحها في نهاية الصيف أو بداية الخريف وعادة ما تكون العطلة ثلاثة أشهر. خلال تلك الأشهر ينسى أو يحاول أن ينسى معظم أولاد الحلة أن هناك مدرسة وبالرغم من حر الصيف الشديد وربما انتشار أمراض الصيف وتحذير الآباء لأولاد الحلة بالرغم كل ذلك يوصل أولاد الحلة بمجموعاتهم المختلفة مناشطهم وقد يحدث فعلاً أن يصاب البعض بالالتهاب السحائي أو أمراض الصيف المختلفة. ومن بعض العوامل التي يستعملها الأهل في إخافة أولاد الحلة من اللعب في حر الصيف الشديد فإن الالتهاب السحائي يسمى عند العامة (أبو فرار) ويحاول الأهل إيهام أولاد الحلة بأن هناك فرار طائر في الحر الشديد يصيب الأطفال في أعناقهم ولتأكيد ذلك يقال لهم أن أصابة أبوفرار أولاً ما يحس بها المصاب هو تصلب في العنق.

وأول منشط في الصباح بعد شرب الشاي يخرج الأطفال إلى لعب الدافوري أو كرة الشراب أو كرة القدم كلها أسماء للعبة واحدة وهذه اللعبة يمارسها جميع أولاد الحلة مع اختلاف أعمارهم ولكن كل مجموعة في

ميدان مختلف حسب السن والمقدرة وهناك من أولاد الحلة من يكون في سنه أو مقدرته أوسطى لا إلى هذه المجموعة ولا إلى الأخرى وفي ذلك تثور بعض المشاكل والمشاحنات ويرفض الكبار قبول هذا الأوسط وفي بعض الحالات يتم الوصول إلى حلول وسط بأن يقبل ذلك الفتى بشرط أن يقف حارس مرمى مثلاً.

أما كرة القدم نفسها فقد تكون شراب قديم مملوء بالاحن (الدلاقين) وهذا هو الغالب وقد تكون كرة من المطاط وقد تكون مثانة (امبوالة) ثور أحضرها أحد أبناء الجزارين من السلخانة تنفخ بالفم وتستعمل ككرة. أياً كانت فإنها تستعمل وينقسم أولاد الحلة إلى فريقين ويتم التقسيم بأن يقف أثنان من أولاد الحلة من شارعين متجاورين أو لاقتناع بقية أولاد الحلة بأنهما أنسب من يقود الفريق ثم يتم تقسيم أولاد الحلة بواسطة (القرعة) بأن يتفق سرياً كل أثنين على تسمية بعضها بأسماء معينة ربما تكون مثلاً - الإنجليزي أبوشنب والطيارة أم ضنب - ويتقدمان إلى قادة الفريقين ويسمى (كابتن) فيختار أما الإنجليزي أب شنب أو الطيارة أم ضنب - وعندها ينضم صاحب الاسم إلى (الكابتن) أو رئيس (التيم) كلمات إنجليزية لكن تعربت عند السودانيين ومنهم إلى أولاد الحلة.

وقد تكون التسمية بأسماء مشاهير لأعبي كرة القدم في عرف أم درمان مثل الهلال والمريخ والموردة. فتكون الأسماء ما بين طلعت فريد وعبدالخير أو هاشم ضيف الله وحسن كديس وهكذا وقد يتفق أولاد الحلة على اختيار (شاهد) للمباراة وهو عبارة عن حكم لإدارة اللعبة وقد يجري اللعب دون حكم حسب نوعية المباراة وسن ومرحلة اللعب.

وقد يستمر اللعب لعدة ساعات حتى يرهق أولاد الحلة ويتجمع العرق والأتربة على الأجساد والملابس وقد تنتهي المباراة باعتراف فريق بالهزيمة للفريق الآخر وقد تنتهي المباراة بشجار قد تكون له عدة أسباب.

وقد ينتهي الشجار بالاتفاق بأن يكون باقي الزمن (كسر) أي باستعمال العنف في اللعب أما (بالطفى) وهو أن يضغط اللاعب على قدم

الآخر على الأرض وكلاهما حافي القدمين وقد يضرب أحدهم زميلـه مـن خلف لتضرب ساقه اليمنى باليسرى فيقع على الأرض.

وفي نهاية اللعبة مهما كانت تلك النهاية يتجمع أولاد الحلـة حـول سبيل أمام أحد المنازل وهو زير به ماء متروك للمـارة يـشربون المـاء ويتصبب العرق ويدور غلاط ملامي عن أخطاء أو مواقف الجانب الآخر.

هذا وقد تكون المباراة أكثر جدية بأن تكون بين أولاد الحلـة، وأولاد حلة مجاور وفي هذه الحالة يختار أولاد الحلة أجدرهم أو (أحرفهم) لتمثيل الحلة وتبقى البقية للتشجيع وقد يكون بين الاثنـين (كـأس) يـصنع مـن الصفيح بواسطة السمكرية الذين يصنعون أواني الصفيح.

وقد يحدث أيضاً أن تنتهي المباراة بشجار وخلاف وتكون عاقبة ذلك شبه حرب بين الحارتين ولكن ينتهي الشجار والخلاف فـي اليـوم التـالي وتظل المعاملات كما هي.

من هذا يتضح بأن كرة الشراب أو الدافوري أو كرة القدم من أكثـر مناشط أولاد الحلة وخاصة في الاجازات وقد تكون اللعبة في الصباح وقـد تكون بعد الظهر وتنتهي مع مغيب الشمس. وكم من مـشاهير لعبـة كـرة القدم في فرق الكرة المشهورة في أم درمان كانت الـدافوري هـي بدايـة تفوقهم في تلك اللعبة التي أدخلها الإنجليز عند قدومهم إلى الـسودان مـن أول القرن العشرين.

ومن أشهر مناشط أولاد الحلة الرياضية بعد كرة القدم خاصـة فـي هذه الحلة من أم درمان والتي أعتبرناها عينة لحلال أم درمان. من أشـهر المناشط ما يسمى كرة الخيل أو الكدة والسبب في ذلك أن هذه الحلـة هـي إحدى أواخر حلال أم درمان من جهة الغرب وبعدها فضاء واسع يمتد حتى حدود كردفان ومواقع عربان البادية في ذلك الفضاء الواسع مخطط ميادين للعبة كرة الخيل الحقيقية وهي ما يسمى (بولـو) وتلعـب فعـلاً بالخيـل ومضارب طويلة وكرة مستديرة من الخشب ومع الزمن نقل أولاد الحلة تلك

اللعبة إلى حلتهم وبدلاً من الخيل يستعملون أرجلهم ويحملون مضارب أما من الخشب أو السيخ ويستعملون أما كرة الخيل القديمة التي يتصيدونها خارج ميادين كرة الخيل التي يشاهدونها غرب الحلة أو نواة الدوم الصلبة.

وبعدم وجود الخيل وليس هناك ميادين سوى شارع الحلة فتصبح اللعبة شبيه بلعب (الهوكي) الإنجليزية وبما أن أولاد الحلة حفاة لا ينتعلون أحذية وسيقانهم مكشوفة فقد تحدث اصابات في السيقان أما من ضرب الكرة التي قد تكون بعدم وجود كرة الخيل الخشبية قد يكون من ما يتبقى من (الدومة) بعد أكلها. من أجل ذلك نجد معظم أولاد الحلة لديهم جروح مربوطة بالشاش أو تم برؤها وقد يصيب الجروح تلوث فتظل لعدة أشهر وقد تدار اللعبة بنفس الأسس التي تدار بها كرة القدم وقد تنتهي أما بالتراضي أو بالشجار وفي الحالة الأخير قد تستعمل عصى (المضارب) وتحدث بعض الاصابات ولكن كحال أولاد الحلة يزول الغضب في اليوم التالي وتعود النفوس إلى مجاريها من التوادد.

في حر الصيف يخرج بعض أولاد الحلة إلى الخلاء الواسع خارج أم درمان من جهة الغرب وكانت بعض أشجار الحراز والسلم صغيرة ومتفرقة وفي تلك الأشجار يتجمع ما يسمى (الكدندار) وهو نوع من الخنافس الطائرة يجمعه أولاد الحلة ويربطون في إحدى أرجله خيط ويدعون الخُنفس يطير وتكون كإحدى وسائل اللعب وإذا صادف الحظ أحد أولاد الحلة فبدلاً من أن يجد (كدندار) عادي يجد ما يسمونه (الجوهرة) وهي خنفس له ظهر لامع يعكس ضوء الشمس.

وفي نفس الوقت قد يخرج بعض أولاد الحلة لنصب الشراك لصيد القباشي وهو طائر جميل خلوي يظهر في الخريف مع ظهور بعض الحشرات الطائرة مثل الجراد و(القبور) وينصب (القلوبية) وهي من السلك ولها (ياي) توضع القبورة (وهي الجراد الصغير) بشكل ينصب أجنحتها الملونة للفت نظر القباشي الذي بمجرد محاولته التقاط (القبورة) تقبض عليه (القلوبية).

ولأولاد الحلة طرق لتوجيه القباشي إلى ظل الشجرة الصغيرة التي ينصب تحتها الشرك وترى ود الحلة يطارد القباشي من موقع إلى موقع وينادي عليه (يا قباشي ديك المالوفة أح دنقدر شوفه أح) ويقفز القباشي من شجرة إلى حجر إلى منخفض وود الحلة خلفه من على البعد وينادي عليه إلى أن ينجح في توصيل القباشي إلى محل (القلوبية) وطوال تلك الفترة يضرب على صدره ويقول أح وعندما تنقلب القلوبية على عنق القباشي يسارع ود الحلة إلى الوصول إليه وتخليصه من (القلوبية) قبل أن تزهق روحه.

في خلال تلك المطاردة للقباشي أو التنقل بين الأشجار يجد أولاد الحلة آفة مؤلمة وهي الحسكنيت. والحسكنيت عبارة عن شوك ينمو في الأرض وله أبر مؤلمة وينغرس على القدم فجميع أولاد الحلة يسيرون حفاة دون أحذية.

ومطاردة القباشي وتصيد (الكدندار) في واقعها عبارة عن رياضة غير مقصودة فقد يجري أو يمشي ود الحلة عدة أميال في نهار مطاردته للقباش أو الكدندار ويتصبب منه العرق وتتراكم الأتربة على جسده.

في أمسيات تلك الأيام الصيفية الحارة وعند مغيب الشمس وهبوط الحرارة عدة درجات يتجمع أولاد الحلة تحت مصباح الشارع مرهقين وقد يمارسون مناشط المساء من شدة التعب ولكن يتبادلون أخبار صيد القباشي والكدندار وهناك من يجمع كمية (الكدندار) في صندوق من الخشب أو الصفيح ويضع بعض أوراق الشجر داخل الصندوق ليعيش عليها (الكدندار) وبذلك يمكنه الحفاظ على صيده لعدة أيام.

أما القباشي فقد يعمد بعض أولاد الحلة إلى قطع رأسه ونتف ريشه ثم غسله وشواءه وبعضهم قد يضعه في قفص من البوص أو السلك ويحاول وضع شيء من الماء والذرة لاعاشته.

تقوم خلف أم درمان من جهة الغرب تلال تسمى جبال المرخيات وفي ذلك الزمان كانت تبعد عن حدود المدينة الغربية بحوالي خمسة أو سبعة أميال فكان أولاد الحلة الذين تخطت سنهم الثانية أو الثالثة عشر في بعض أيام أوائل الخريف يسيرون كجماعات إلى جبال المرخيات يحاولون تسلقها وقد يشاهدون في ذلك الزمان بعض الغزلان المنتشرة ما بين شرق مديرية كردفان ويشاهدون بعض الثعالب التي قد تدخل إلى غرب المدينة ليلا للسطو على الدجاج.

في ذلك الزمان لم يكن التصحر قد وصل إلى منطقة أم درمان وكانت أمطار الخريف تتسبب في قيام الكثير من الأعشاب التي تصلح لرعي البهائم وخاصة الماعز الذي كانت معظم الأسر تسعاه كمصدر للبن وفي الحلة التي نتحدث عنها كان هناك راعي غنم مشهور ويسكن في نفس الحلة وفي الصباح وبعد الحليب يخرج أصحاب الغنم بهائمهم إلى الشارع فيقودها – ود الشاعر – وهذا اسمه إلى غرب أم درمان ويعود بها قبل المغيب وتدخل الغنم إلى منازل أصحابها بكل ذكاء ومعرفة وقد يتم حلبها أيضاً في المساء وتقدم لها علائق إضافية من الذرة والامباز. وفي نفس المناطق نجد هناك من يقومون بزراعة القصب والتبش والذرة الشامي ويقيمون التروس لتجميع مياه الأمطار لذلك الغرض ويضعون أشجار الشوك حول مزارعهم الصغيرة حماية لها من البهائم وكذلك حماية لها من أولاد الحلة الذين يسطون على التبش والعنكوليب الذي يزرع في تلك المزارع الصغيرة.

ومن مناشط أولاد الحلة في الخريف البحث عن (الحميض) في الوديان والخيران غرب أم درمان. والحميض نبات زاحف من فصيلة البطيخ والتبش والحنظل والحميض والحنظل ثمار صغيرة شبيهة بالتبش ولكنها صغيرة جداً ويأكل أولاد الحلة الحميض وله طعم مستساغ، وقد يصادف ود الحلة الحنظل هو شبيه بالحميض في شكله وفي شجرته ولكن مر إلى درجة أن المثل يضرب بمرارة الحنظل إذا كان الشيء أكثر مرارة.

ويستعمل الحنظل أو بذرته على الأصح في استخراج القطران الذي يستعمل في علاجات جروح البهائم وفي أغراض علاجية أخرى للبشر وقد يوضع قليل منه في الماء ليطهره من الجراثيم.

ومن المخاطر التي يتعرض لها أولاد الحلة في الخريف أن خور الجمال الذي يحد أم درمان من الغرب يفيض بمياه غزيرة تجرف معها كثير من الأوساخ وفضلات البهائم ثم يتقطع الخور إلى برك بعضها عميق فيسارع أولاد الحلة إلى السباحة فيها ولو أنها لم تكن عميقة لغرق بها الأولاد إلا أنها مياه متسخة وبها كثير من الحشرات والأمراض وكثيراً ما يصاب أولاد الحلة بالحمى والاسهال ثم الأمراض الأخرى مثل الحصبة والبرجم والرمد و(التراكوما) والبثور الصديدية ومهما يحذر الأهل من كل ذلك إلا أن أولاد الحلة باختلاف أعمارهم يعتبرون كل تلك المناشط الضارة جزء من اللعب.

ومحاولة من الآباء والأمهات لإثناء أولاد الحلة عن ممارسة التصرفات التي تعرضهم للأخطار، توجد بعض القصص المخيفة مثل (السماوي) والسماوي هذا هو شخص خيالي يسكن في حجرة تبعد عن المدينة بحوالي الميلين وأصل تلك الحجرة مقامة قديمة لمراقبة العربان الذين يجلبون البهائم أو الدجاج أو حطب الحريق إلى الحلة ولكن عمد الآباء إلى إشاعة قصة بأن السماوى هذا رجل لديه شيء من السحر ويخطف الأطفال ثم يعلقهم من أرجلهم ليتدلى الرأس إلى أسفل ويتركهم كذلك لوقت طويل حتى يتجمع الدم في الوجه والرأس ثم يقوم بفصد الوجه والحصول على الدم في إناء ويمتص ذلك الدم.

هذه الاقصوصة المخيفة قد ترعب العديد من الأطفال بالذهاب بالقرب من بيت السماوى كذلك هناك أقاصيص أخرى مثل اختطاف العربان للأطفال ثم قطع عراقيبهم حتى لا يهربوا ويعودوا إلى أهلهم وهناك أقاصيص أخرى مثل قصة سليمان (البعاتي) الذي مات ودفن ثم عاد إلى أهله يطلب بعض

ملابسه وحاجياته ويقصد من هذه الأقصوصة تخويف أولاد الحلة من الخروج بالليل أو البقاء خارج المنزل لساعات بعد مغيب الشمس.

كما أن هناك قصة أخرى من قصص الليل هي قصة (أم سيرو) وهذه قد تظهر في شكل فتاة جميلة تسر أولاد الحلة وغالباً المراهق الذي بدأ في رسم خيال الفتيات الجميلات المدسوسات خلف أسوار البيوت وإذا ود الحلة تابع (أم سيرو) هذه وتدور به في الأزقة ويتوه ولا يعرف اتجاهه أو مكانه حتى يطلع عليه الفجر أو تقوده (أم سيرو) إلى عالم مجهول قد لا يعود منه.

ومن الآفات التي كانت تهبط على الحلة آفة الجراد الصحراوي ويظهر غالباً في نهاية الخريف ويكون في شكل أسراب كثيفة تبدو من البعد كأنها الدخان ويهبط الجراد على المزارع والأشجار ويلتهمها.

وحدث في منتصف الاربعينات من القرن العشرين أن نزل على البلاد نوع من الجراد اسمه (العتاب) هو في بدايته شبيه بالصرصار يقفز ولا يطير ولكنه يلتهم الأخضر واليابس وحتى الملابس والورق وحبال (العناقريب) وحتى يقال أنه ألتهم بعض الأطفال الرضع في أسرتهم ويأتي في موجات زاحفة على الأرض وهو في حقيقته جراد في حالة اليرقة وبعد فترة تخرج الجرادة من غلافها وتطير ويترك الغلاف ناشفاً على الأرض أو الشجر ولكن لا يطير إلا بعد أن يلتهم كل شيء.

وقد حدث وأعقب (العتاب) في ذلك ما يسمى (بالصرفة) وهي ديدان تأتي أيضاً زاحفة على الأرض وتلتهم كل ما يصادفها.

وهكذا كانت حالة أولاد الحلة في أواخر الثلاثينات والاربعينات من القرن الماضي وما من أسرة إلا وفقدت بعض أولادها أما بالحمى أو السحائي أو السل أو بعض أمراض الصيف أو الشتاء أو الخريف ومن بقى على قيد الحياة تمكن من الحصول على المناعة الطبيعية التي تأتي من الاصابة الخفيفة والتي تكون شبيهة بالتطعيم.

وعندما وصل أولاد الحلة الذين كانت طفولتهم ما بين الثلاثينات والاربعينات عندما وصلوا إلى مرحلة الرجولة كانوا قد أكتسبوا مناعة طبيعية وواجهوا الحياة أكثر صلابة وقوة.

معظم نشاط أولاد الحلة يتركز في فترة عطلة المدارس في الصيف ويعمد بعضهم للعمل لكسب بعض المال فالأسر فقيرة جداً أو فقيرة أو أحسن من الفقر قليلاً فهناك من يعمد إلى العمل الشاق مثل عمال المباني في حمل الطوب أو الطين والبعض يعمل في الأسواق مثل ما كان يفعل سنوسي في بيع الطايوق أو أحمد في مساعدة والده الحداد أو بيع الليمون مع خاله.

وهناك من أولاد الحلة من يعمل له (طبلية) والطبلية عبارة عن صندوق له أرجل وغطاء من السلك يمكن رؤية المعروضات بداخله وفي الطبلية توضع أنواع متعددة من الحلوى التي يحبها الأطفال ويشتريها ود الحلة من السوق بسعر الجملة وبيعها لأولاد الحلة بالملاليم أو التعاريف.

وهناك من يذهبون إلى السوق ويشترون ربطة من (العنكوليب) هو شبيه بسيقان الذرة الطويلة ويؤكل مثل قصب السكر وطعمه لذيذ شبيه بطعم قصب السكر وتتراوح أسعار العنكوليب حسب الحجم والنوع قد تكون العنكوليبة بمليم أو اثنين وربطة العنكوليب من السوق قد تكون بعشرة قروش وبها حوالي مائه عنكوليبة وتباع الواحدة بملمين وبذلك يكون ربح ود الحلة أكثر من خمسين في المائة من رأس ماله بعد أن يأكل هو الباقي من العنكوليبة، أو يجد البعض تالفاً.

وكذلك من يبيعون (التبش) وهو كما ذكرت من فصيلة الخيار والعجور وبائع (التبش) عليه أن يجهز عصير الليمون بالشطة ويتلذذ أولاد الحلة من أكل الشطة حتى تسيل أنوفهم.

هذه الأعمال التجارية البسيطة من بعض أولاد الحلة قد تكون بداية لروح تجارية لود الحلة قد تكون موروثة من والده أو أهله وقد تكون غير ذلك وربما في المستقبل يتحول ذلك الولد إلى تاجر بصورة من الصور.

أما أولاد الحلة الصغار الذين ربما يخافون من الظلام أو يخوفونهم أهلهم من (البعاعيت) فيعودون إلى بيوتهم بعد مغيب الشمس مباشرة وربما ترعاهم الأمهات والأخوات بالنظافة وإعداد المضاجع ثم العشاء وبعد ذلك يجلسون حول (الحبوبات) لسماع الأحاجي فلم يكن هناك راديو ولا تلفزيون ولا حتى النور الكهربائي الذي لم يصل إلا لبيوت الاثرياء ولم يكن في الحلة أثرياء بل فقراء جداً وفقراء وأحسن من الفقراء قليلاً.

وسيلة الإنارة داخل البيوت والتي لم يدخلها التيار الكهربائي متدرجة ثلاثة طبقات فالفقراء جداً يستعملون (المسرجة) وهي عبارة عن إناء من الزجاج أو الصفيح وبداخله خيط مضفر من القطن ويوضع بداخل الإناء إما زيت أو جاز أبيض وتشعل (المسرجة) بالكبريت وتظل تعطي نوراً خافتاً ولكنه يعتبر كافياً لقضاء حاجيات الأسرة الفقيرة جداً وتكون هناك عدة (مسارج) بعضها ثابت في الحجرة أو (الدانقة) وبعضها يستعمل بالتنقل إلى أجزاء المنزل الأخرى ومشكلة (المسرجة) بأنها شعلة مكشوفة في مهب الريح وقد تنطفئ، أما لهبوب الرياح أو لقلة الزيت أو الجاز وقد تحدث بعض الحرائق في المنزل إذا أهمل مراقبة (المسرجة).

أما طبقة الفقراء فهذه تستعمل (فوانيس) الجاز وهي مستوردة ولها شريط خاص وحافظ للجاز وحول الشعلة زجاج يحفظها من الريح.

وفي هذه الحالة هناك إجراء يومي قبل مغيب الشمس هو عبارة عن نظافة زجاج (الفوانيس) من سواد أي دخان - لو وجد - ثم إعادة ملئها بالجاز الأبيض الذي في الواقع يشترى أما من الكنتين القائم في طرف الحلة أو من صاحب العربة التي يقودها حمار ويمر في الشوارع من حين لآخر.

أما في حالة الطبقة الثانية وهي طبقة أحسن من الفقراء فهؤلاء يستعملون مصابيحاً أكثر تطوراً وأنقى ضوء وهي (الفنيار) أو يستعملون مصابيح (الرتاين) والرتينة تضاء بالجاز الأبيض ولكنها لديها وسيلة لضغط

الهواء داخل خزان الغاز ثم ينظم الغاز المضغوط بطريقة تجعله يشتعل في (رتينة) من نسيج ناعم يعطي ضوءاً أبيضاً ناصعاً قد يفوق في قوته الضوء الصادر من المصباح الكهربائي العادي.

والرتينة قد تستعمل داخل المنزل وفي ذلك الزمان عندما تتحرك (السيرة) التي تقود (العريس) إلى منزل العروس تحمل الرتاين لتضيئ الطريق للسيرة التي هي عبارة عن الرجال والنساء الذين يصاحبون العريس إلى منزل العروس وهناك (السيارة) وهي التي تتغنى في الطريق بمصاحبة الفتيات إلى أن يصلوا إلى منزل العروس.

ومن أروع التراث الذي انتهى في الوقت الحاضر بعد وصول التلفزيون والراديو والحاسوب، ذلك هو تراث أحاجي الحبوبات. هناك عدد لا يحصى من قصص البطولات والحب والعفاريت والمغامرات ترويها الحبوبات للأطفال.

عندما يأتي المساء ويتناول الأطفال الوجبة الأخيرة في اليوم من أهم الحوافز التي تقدمها الأسرة لأطفال الحلة حتى يتناولوا وجبة المساء ويشربوا اللبن إن وجد من أهم الحوافز أخطار الأطفال أنهم إذا تعشوا وشربوا اللبن فإن (حبوبة) ستحكي لهم (حجوة) جديدة.

والأحاجي فيها كثير من الاسطورية ممزوجة بالتاريخ وأعمال أبطال الماضي وتدخل السحر والعفاريت والساحرات والجن والخرافات. والذي يحدث عادة في كل أمسية تبدأ (الحبوبة) بأن (الحجوة) تقول الحبوبة حجيتكم بجيتكم ضيفاً جانا أكل عشانا وحلٍّ عشاكم ومن أشهر تلك الأحاجي، فاطمة السمحة، ود النمير (ويقصد الأمير) والغول والساحرة.

أقاصيص شبيهة بأقاصيص ألف ليلة وليلة ولكنها في الغالب الأعم أقاصيص سودانية نابعة من البيئة والخرافات القديمة ويظل الأطفال صامتون يستمعون (للحبوبة) وهي تروي لهم القصة بصوت رخيم ترتفع نبراته وتنخفض حسب القصة وقد تمثل الحبوبة اصوات أبطال القصة أو

الحيوانات المشاركة في القصة أو أصوات حوافر الخيول وأجنحة الطيور الضخمة التي تغطي السماء. والذي يحدث أن الأطفال المرهقون من لعب النهار يبدأون في النوم الواحد بعد الآخر وما تمر عشر دقائق أو ربع ساعة إلا وكل أطفال الحلة يروحون في نوم عميق فيحملون إلى (عناقريبهم) إما داخل الحجرات في الشتاء وتحكم تغطيتهم أو في (الحيشان) في الصيف.

وما أن يأتي مساء اليوم التالي إلا ويجتمع أطفال الحلة حول حبوبة طالبين مواصلة (الحجوة) وكل يطلب أن يحكي له من أخر لحظة قبل نومه فيحدث الخلاف وعندها تضطر حبوبة إلى بداية (الحجوة) من أولها ويتكرر الأمر ويهبط النوم على الأطفال حسب ارهاقهم أو سنهم أو رغبتهم.

تلك الأحاجي في واقعها تضع اللبنة الأولى في خيال الطفل فكلّ يكمل صورة أو صور القصة من خياله فهي ليست كالسينما أو التلفزيون (الحجوة) عبارة عن كلمات وأصوات وأحداث فيها كثير من المبالغات والتهويل الذي يثير خيال أطفال الحلة وفي بعض الأحداث يحدث الخوف عند البعض أو البكاء عند البعض الآخر أو الضحك والسرور.

وهناك مجموعة أخرى من أطفال الحلة لا هي بالكبار الذين يجتمعون تحت مصباح الكهرباء في الشارع إما لالعاب الليل أو الحديث ولا هي من صغار الأطفال الذين يأوون إلى البيوت لسماع أحاجي الحبوبات.

هؤلاء يعودون إلى البيوت ويجلسون إلى الأخوات الكبار أو الأمهات وبدلاً من الأحاجي التي يكونون قد استمعوا لها عدة مرات عندما كانوا صغاراً بدلاً من ذلك يتبادلون (الفوازير) وهي تشبيهات مختلفة عن أشياء معروفة ويطلب من الطفل معرفة الشيء أو الإنسان أو الحيوان الذي ترمز له تلك (الفوازير).

مثال ذلك:

أزرق كِتة أب كرعيناً ستة - وهو الخنفسان طويل ما بلحق الكعكون (والكعكون هو الصمغ في الشجرة). هذا هو الطريق. أو دخل القش ما قال كش وهذا هو الظل. أو كان شالو ما بنشال وكان خلو سكن الدار وذلك هو الرماد، أو طاسة طمنطاسة في البحر غطاسة بطتنا لولى وطهرا نحاسة وهي الرمانة وهكذا.

ويظل هؤلاء من أطفال الحلة لفترة أطول من الصغار ولا ينامون لأن (الفوازير) تنشط العقل طوال الوقت وربما تثير منافسة ما بين الأطفال إلى أن ينادي كبير البيت ويقول: (خلاس كل زول يمشي عنقريبو).

وفي الصباح يخرج جميع أولاد الحلة الصغار والكبار هناك من يتوجه إلى الخلوة وهناك من يتوجه إلى المدرسة الأولية أو المدرسة الوسطى وتهدأ الحلة من ضجيج الأطفال والبيوت من مشاكل الأطفال ويخرج رجال الحلة إلى أعمالهم المختلفة وتتجه نساء الحلة إلى أعمال البيت المختلفة من غسيل الملابس وتجهيز الأكل ونظافة المنزل.

وهناك من نساء الحلة من يتمكن من القيام بواجب ربة المنزل بسرعة أما لوجود البنات في البيت للمساعدة أو خدم المنازل لمن هم أحسن قليلاً من الفقراء وعندها تتم بعض الزيارات (للونسة) وتبادل الأخبار وهي تنحصر في أخبار الأسر المختلفة وأحداث الحلة ومشاكلها وما يفرح منها ومايحزن وما بين ذلك وذاك شأن كل الأسر وكل (الحلال) وهناك المولعات بما يسمى (القطيعة) والتحدث عن أسرار الناس.

وقبل عودة رجال الحلة إلى بيوتهم تعود نساء الحلة إلى بُيوتهن لتجهيز الطعام وقضاء حاجيات البيوت التي لا تنتهي.

وهناك من أهل الحلة يعتبرون من أهل الخير يقتسمون ما لديهم مع الجيران رغم الفقر الشديد والفقر أما أولئك الذين يرتفعون قليلاً عن مرحلة

الفقر – وهي قلة في الحلة – فهؤلاء لا ينسون الجيران قط في جميع المناسبات وحتى في غير المناسبات.

هناك زوجة (القوصى) المصرية الذي قدم إلى الحلة وأقام فيها وأصبح من رجالها. زوجة القوصى في فصل معين من السنة تقدم لمعظم الجيران ما يسمى (الفول النابت) وهو الفول المصري الجديد والذي يعطن في الماء إلى أن يبدأ في (التزرع) ثم يطهى ويضاف له السكر والسمن البلدي وتلك الأكلة يتطلع لها أطفال الحلة كل عام.

وهناك تجار البهائم في سوق الماشية والذي يزيد دخله في فترة الشتاء عندما ترد مئات البهائم من كردفان وعندها قد يشتري البطيخ بالشيكة وهي التي تحتوي على عشر أو أكثر من ذلك من البطيخ ثم يوزعه على الجيران ربما نصف بطيخة أو بطيخة كاملة لكل جار.

وهناك من يعملون (بليلة) اللوبة أو (الكبكبى) أما إجابة للنذور أو دفعاً للبلاء أو شكراً لله ثم يوزعون تلك البليلة على الجيران وربما معها بعض التمر.

وفي مناسبات الوضوع وعندما تكمل (النفساء) فترة النفاس تعمل مديدة التمر و(اللقيمات) والأرز باللبن.

كل تلك المشاركات تدل على روح التوادد والرضى والايمان وشكر الله على الحال رغم الفقر الشديد أو الفقر أو أحسن من الفقر قليلاً فالكريم لا بالغنى ولكن الكرم نابع من النفوس ونفوس أهل الحلة كريمة وطيبة.

معظم أنشطة أولاد الحلة تنحصر في العطلة الصيفية أو في يوم الجمعة من كل أسبوع ففي يوم الجمعة يخرج كل أولاد الحلة للعب كل في مجموعة سنه ويعودون إلى البيوت عندما يكاد اليوم أن ينتصف وهنا يأتي برود الجمعة، ففي ذلك الزمان كان الناس كباراً وصغاراً يبتردون وهي الكلمة الصحيحة لأن البرود هو وسيلة أهل المناطق الحارة في غسل

الجسم وتبريده من الحر بالماء البارد أما ما يسمى حمام فتتم عملية التسخين بالماء الساخن أو الدافئ.

وعملية الابتراد أو برود تتم لأولاد الحلة مرة في الأسبوع وربما مرتين فليس البرود كل يوم وبعد اللعب في يوم الجمعة تحصل عملية الابتراد بالماء والصابون والليف وليس في البيت ما يسمى الآن الحمامات فعملية الابتراد يتم داخل الغرف فيوضع طشت وجردل به الماء ويصب الماء وتحصل عملية الغسيل والحك بالليفة من أعلى إلى أسفل وفعلاً يتجمع الماء المتسخ في الطشت وآخر جزء من الجسم يغسل هو الأقدم ويخرج الشخص من الطشت الملئ بالماء المتسخ والذي يصب في الجسم بواسطة (كوز) يغرف الماء من الجردل وتحصل عملية الاغتسال.

الماء الناتج من البرود في الغالب يرش داخل الغرفة فالأرض من التراب أو الرمل وليس هناك ما يسمى (البلاط) من الاسمنت أو الحجر أو يرش الماء في فناء المنزل للتبريد أيضاً.

ويوم الجمعة هو اليوم الذي تغير فيه الملابس المتسخة بملابس نظيفة وفي صباح السبت يخرج أولاد الحلة إلى المدارس والخلاوي وهم يرتدون الملابس النظيفة وفي بعض المدارس يتم التفتيش على نظافة التلاميذ بواسطة ضباط المدرسة نظافة الملابس وكذلك نظافة الجسم ويعاقب التلميذ المتسخ أو حتى يطرد من المدرسة للعودة إلى المنزل ليتم نظافته.

والذين يغيرون ملابسهم أثناء الأسبوع أولئك أولاد الميسورين أما أولاد الحلة التي نتحدث عنها فكلهم أو معظمهم – كما قلنا – فقراء جداً وفقراء وقلة صغيرة جداً فمن هم أحسن حالاً من الفقراء ولذا يتم تغيير ملابس معظم أولاد الحلة يوم الجمعة والحريص من أولاد الحلة هو الذي يحاول وينجح في الحفاظ على نظافة ملابسه ليومين أو ثلاثة أيام في أول الأسبوع.

من هوايات أولاد الحلة غير اللعب بالنهار بألعاب النهـار أو بالليـل بألعاب الليل هناك بعض أولاد الحلة من له هواية تربية الحمام. وقد ذكرت من هؤلاء سيد الذي أصبح خبيراً عالمياً في أنواع الحمـام وأشـترك فـي معارض عالمية.

أما معظم هواة تربية الحمام من أولاد الحلة بالإضافة إلى حب الحمام نفسه نجد أنها عندما تتوسع تصير تجارة مربحة لود الحلة وغالباً ما يقوم ود الحلة ببناء (برج الحمام) وكلمة برج الحمام هذه ربما جاءت من مصر لأن المصريين من أكثر الشعوب حباً للحمام ويعتقدون أن لحم الحمام مـن اللحوم المغذية ويقيمون أبراج الحمام في شكل أبراج فعـلاً فـي المـزارع وبشكل مخروطي وعليه فتحات لدخول وخروج الحمام.

أما في الحلة فإن برج الحمام عبارة عن عشة أو غرفة صغيرة مـن الطين وتثبت في الحيطان أثناء البناء صفائح فارغة غالباً من تكون صفائح البنزين الفارغة القديمة أو (برام) صغيرة من الطين قد تكون بقايـا أزيـار تكسرت أو تصنع خصيصاً بواسطة صانعي الأزيار إذا كـان الهـاوي يـود إقامة برج كبير.

تثبت تلك الأواني داخل الحيطان أو ترص داخل البرج حسب حجـم البناء ويكون للبرج باب يُمكن صاحبه من الدخول والخروج وفـي نفـس الوقت به شباك يفتح ويغلق في الصباح والمساء.

والعدو الأول لهواة تربية الحمام هو (القط) أو ما يسمى (الكـديس) فهو الذي يسطو بالليل على الأبراج يقضي على الحمام وفي الصباح يفتقـد صاحب البرج عدداً من (الفروخ) وهي صغار الحمام.

ولذلك تجد أن من له برج حمام يحتفظ على الأقل بـشرك لأقتنـاص القط اللعين. والشرك عبارة عن قفص من الحديد وأسلاك السيخ وله بـاب يغلق من الخارج ويوضع (الطعم) في الداخل ويربط مع الباب المغلق.

ويكون الطعم من اللحم ليجذب القط وعندما يدخل القط داخل الـــشرك ويقبض على قطعة اللحم تنفلت الحديدة المعلقة وتنزل لتغلق الشرك علـــى القط. يحاول القط الخروج دون جدوى ونادراً ما يتمكن قط مـــن الانفـــلات وفي الصباح – فالقط عادة ما يسطو على الحمام بالليـــل – فـــي الـــصباح يبتهج صاحب البرج بالقضاء على القط اللعين.

وطريقة إخراج القط من داخل الشرك والقضاء عليـــه بـــأن يـــدخل مقدمة الشرك في جوال ويحكم القبض عليه من أطرافه ثم يرفع الباب قليلاً فيقفز القط إلى الخارج ويجد نفسه قد دخل في الجوال وسريعاً مـــا يقفـــل الجوال.

وهناك طرق عدة عرفت للتخلص من القطط. أولها وفي ذلك قـــسوة وانتقام من القط اللعين وهذه ضرب الجوال وبداخله القط بـــالأرض مـــرات عديدة حتى يموت القط أو يضرب القط وهو داخل الجوال بعـــصاة غليظـــة حتى يموت ثم يخرج من الجوال ويقذف به في الشارع.

وهناك طريقة أقل قساوة وهي أن يحمل الجوال إلى خـــارج الحلـــة وأكثر ضماناً أن لا يعود القط إلى الحلة أن يحمل إلى الجانب الأمر من النيل أما إلى شمبات بالمعدية ويترك في منطقة أشجار شمبات أو إلى الخرطـــوم ويترك في منطقة المقرن وربما يجد حياة أحسن تحت موائـــد رواد مطعـــم المقرن.

وهناك طريقة نادرة كانت لأحد هواة الحمـــام – رحمـــة الله – وقـــد تحدثت عنه في (أيام زمان) الذي نشر في أوائل الـــسبعينات مـــن القـــرن الماضي وذلك هو (أكل القطط) فقد كان الرجل بعد القبض على القط يتـــولى ذبحه وأكله.

وكما ذكرت فإن تربية الحمام لـــبعض أولاد الحلـــة وســـيلة لكـــسب مصاريفهم الخاصة ويباع جوز الحمام (الفراخ) أي الصغير إذا كـــان جيـــد الحجم، يباع بقرشين ونصف وأما يمر صاحب الحمام وهو يحمـــل الفـــراخ

داخل مقطف على منازل (الخواجات) في حلال مجاورة ومعظم هؤلاء من تجار سوق أم درمان ومنهم المصري واليوناني والأرمني واليهودي والشامي وكلهم موسرون ويحبون أكل الحمام.

وبالمقابل يمكن لصاحب برج الحمام أن يأخذ الحمام إلى سوق الدواجن في سوق أم درمان ويجد السعر المناسب.

والقط ليس هو العدو الوحيد لأصحاب أبراج الحمام من أولاد الحلة فهناك لصوص الحمام وهؤلاء شباب يحملون مقاطف كبيرة ويطرقون الأبواب عارضين نظافة أبراج الحمام على اعتبار أنهم يحتاجون إلى روث الحمام كسماد للمزارع بعض هؤلاء صادقاً في طلبه وأميناً أما البعض الآخر فإذا سمح له بنظافة البرج دون وجود رقيب معه فيقوم بنظافة البرج فعلاً ولكنه يسطو على (جوزين) أو ثلاثة – حسب التساهيل – من الحمام ولا ينكشف صاحب البرج السطو إلا في اليوم التالي عندما يريد أن يأخذ الحمام للبيع أو الذبح.

وهواية تربية الحمام تحتاج إلى عمل متواصل واهتمام ورعاية ففي الصباح الباكر وبعد نظافة إناء الماء خارج البرج وتغيير الماء يفتح الشباك الصغير لخروج الحمام ويرش الذرة وكل ما يحبه الحمام من بقايا المطبخ فيهبط الحمام إلى الأرض ويلتقط الحب ويعرج إلى إناء الماء فيرتوي وإذا كان للحمام فراخ يعود فوراً ومسرعاً إلى الداخل لتغذية الصغار ويفرغ الحمام كل ما التهمه من أكل إلى داخل الفراخ ثم يعود مرة أخرى ليشارك فيما بقى من الأكل ثم ينطلق الحمام طائر في الفضاء أما كجماعات أو أفراد ساعياً إلى زيادة في الرزق ربما إلى أسواق بيع الذرة أو المزارع أو أي جهات أخرى يمكن أن يجد فيها الأكل المناسب وربما إلى منازل الجيران داخل الحلة.

ويعتقد هواة تربية الحمام أن ماء السكر – أي الماء المسكر – يجلب الحمام ويحببه في البرج وكثيراً من هواة الحمام تزاد أبراجهم بسبب تقديم الغذاء الأوفر وماء السكر ووسائل أخرى.

وطريقة اقتناص الحمام ما بين أصحاب أبراج الحمام من الهواء أمر متعارف لديهم ومتفقون عليه دون اتفاق على اعتبار – الشاطر يكسب – وهواة تربية الحمام يتفاءلون ويتشاءمون ويخافون من (العين) ولذلك لا يسمحون لأحد بزيارة أبراج حمامهم إلا إذا كان ذلك بواسطة هاوى أخر للتشاور وتبادل المنفعة أو التفاخر في الوصول إلى سلالات نادرة من الحمام.

وهناك بعض أولاد الحلة من يقومون بتربية القطط، ذلك العدو الأول لهواة تربية الحمام والسر في ذلك أن بالحي أنواع من (الفيران) والفار من أخطر الآفات في البيوت فهو يقرض كل شيء ما يأكله ومالا يأكله ولذلك هناك منافسة ومساجلة بين هواة تربية الحمام والذين يودون محاربة الفئران بواسطة القطط.

ومعظم أهل الحلة الفقير جداً والفقير والذي أحسن من الفقير قليلاً معظمهم يقومون بتربية الدجاج في منازلهم ولكل أسرة – حسب حجم الأمكانات – عدد من الدجاج وديك ومع بروغ الفجر يتصايح الديكة من منزل إلى منزل ويقوم بإيقاظ أهل الحلة جميعاً للصلاة والسعي للرزق وتربية الدجاج في ذلك لم تكن هواية بل كانت جزءاً من حياة الناس فبيض الدجاج من العناصر الأساسية في تغذية الأطفال وخاصة في مجتمع يفتقد الوعي الغذائي والامكانات لتوفير تغذية الأطفال وتربيتهم وبعض الأسر الفقيرة جداً في الحلة قد تستعمل تربية الدجاج أما لبيع البيض أو حتى الدجاج وسوق ذلك كما هو الحال في الحمام هو بيوت (الخواجات) في الحلة المجاورة أو سوق الدواجن. وتعتبر تربية الدجاج والحمام إحدى سبل كسب العيش للأسر الفقيرة جداً والفقيرة.

والطريف في الأمر فإن هناك لصوص للدجاج كما هو الحال في لصوص الحمام. ولكن الفرق كبير فالحمام – وهو فراخ صغيرة – يمكن سرقته من داخل البرج وفي المقطف الكبير الذي يحمله اللص ولا يحدث

الحمام أي صوت لينبه صاحب البرج أما الدجاج فمن أكثر الطيور صياحاً إذا حاولت القبض عليه كما أنه سريع يجري ويختفي ولذلك يعمد لصوص الدجاج إلى استعمال أمعاء الحيوانات ويحاول الدجاج التهام الأمعاء فتدخل في (حوصلته) وهي الجزء الأمامي الذي يختزن فيه الطيور في المرحلة الأولى وعندها وبهدوء يبدأ اللص في القبض على الدجاجة وحملها بعيداً.

وللدواجن حمام ودجاج أمراض متعددة فالحمام قد يصيبه مرض يسمى (أبو حليق) وهو عبارة عن ورم في الحلق يجعل الحمام غير قادر على البلع وينتهي بموت الحمام وليس له علاج معروف وهو مرض معدي إذا أصاب برج الحمام قد يقضي على معظم البرج. كما أنه قد يصيب الحمام بنوع من الاسهال ويتغير براز الحمام وينتهي بالموت ولكن ذلك أقل انتشار من (أبو حليق).

أما آفة الدجاج الرئيسية هي (الهيم) وهو حشرة صغيرة تلتصق بجلد الدجاج وتحت أجنحته وتمتص الدم كما أنها تتسبب في كساح الدجاج ومنعه من المشي وقد تعالج الهيم (بالرماد) الذي ينتشر في جسم الدجاج وهناك أدوية أخرى يمكن الاستعانة بقسم الدواجن في عيادة (البيطري) الذي يعالج الحيوانات والدواجن لكن العنصر الأساسي في الوقاية للدواجن هو النظافة وخاصة تجديد ماء الشرب.

ومن الأغذية المفيدة للحمام حب (الشطة) فهي من الحبوب التي يحبها الحمام فبالرغم من الاعتقاد بأن ماء السكر مفيد للحمام وجالب لحمام الآخرين إلا أن حب (الشطة) له خاصية في زيادة إنتاج الحمام.

ومن ممارسات أولاد الحلة نصب الشراك للفئران وبوسائل عديدة منها استعمال السم الذي يمكن شراوه من الصيدليات ومنها الشراك التي أما تشتري مستوردة أو تضع بواسطة أولاد الحلة أنفسهم وهو شبيهه بشراك القطط ولكنها صغيرة مصنوعة من السلك ويدخل فيها بعض الأطعمة التي تحبها الفئران مثل البصل.

ومن الآفات المنتشرة في البيوت (الضب) وبالرغم من أن الضب لا يسبب التلف وليس قارضاً ويعيش على الحشرات من الخنافس والجـراد إلا أن الاعتقاد بأن الضب إذا وصل إلى طعام قد يسمه كما أن هناك نفور عـام عند أولاد الحلة من الضب ولذا نجـد أن بعـض أولاد الحلـة يـستعملون (الجبادة) التي تستعمل في صيد السمك وعليها طعم صغير مثـل (الجـراد) الصغير وربط (الجبادة) أو السنارة بخيط ووصلها بعود من الامام ثم أدخال ذلك في الشق القائم في حيطان بيوت الطين، وهي معظم بيوت الحلـة ثـم إصدار أصوات شبيهه بأصوات الضب نفسه وعندما تنشبك السنارة في فـم الضب يتم جره من الشق ثم ضربه بالأرض حتى يموت.

هناك حشرة تصيب الإنسان في ذلك الزمان وقد إنقرضت في الوقـت الحاضر فليس لها وجود وهي (القمل) وكان القمل موجـوداً فـي ملابـس الأطفال والكبار وكذلك في داخل الشعر في الرأس. والقمل حشرة صـغيرة جداً تقتات من دم الإنسان وله نوعان فقمل الرأس أسـود يختفـي داخـل الشعر ويحس به الإنسان فيعمل على حك رأسه ومن أعمال النساء – وهن صاحبات الشعر الغزير – يتبادلن (تَفلِية) القمل مـن رؤوسـهن وتتـولى الواحدة البحث عن القمل في رأس صاحبتها وتتولى قتله بواسطة أظافرهـا تطبق عليه بطفرين واحد من كل يد.

أما قمل الملابس فلونه أبيض ليختفي في لون الملابس الغالب عليـه اللون الأبيض. والسبب الرئيسي في ذلك الزمان بين أولاد الحلة ورجالهـا ونسائها عدم النظافة اليومية فعادة (البرود) بالماء والصابون يحـدث فـي أيام الجمع فقط وربما مرة أخرى اثناء الأسبوع إذا كانت هناك مناسبة كما أن الملابس لا تغير يومياً بل أسبوعياً.

وقد تكون الوسيلة الوحيدة المستعملة في التخلص من قمل الملابس وهي نشرها في الشمس الساخنة.

ومن طرائف القمل أن بعض الناس ينشرون السراويل في الحر الساخنة على الأرض إلا أن القمل يجر السروال إلى الظل ابتعاداً من الشمس الساخنة وطبعاً تلك مبالغة لا تحدث ولكن لإظهار كثرة القمل عند بعض الأشخاص.

ومن مضاعفات القمل أنه يسبب الحمى الراجعة وهي نوع من الحمى يصيب الدم وقد يتحول إلى وباء. ولكن مع النظافة والوعي الصحي فقد تم القضاء على القمل وأطفال الحلة في الوقت الحاضر لم يشاهدوا القمل في حياتهم.

* * *

(٣)

لأولاد الحلة نشاطات متعددة وخاصة في فترة الصيف عندما تقفل المدارس أبوابها ومعظم الأنشطة يقوم بها أولاد الحلة الذين وصلوا إلى المدارس الوسطى أما ما بين سن الثانية عشرة والخامسة عشر.

لعبة كرة القدم أو ألعاب النهار الأخرى مثل (سجك) و(البلي) أو الطقاشة هذه قد تكون الألعاب اليومية الروتينية ولكن هناك ألعاب أو نشاطات يأتي بها بعض أولاد الحلة كأفكار لتغيير مسار النشاط اليومي.

من تلك النشاط السير إلى جبال المرخيات في مجموعة وقد يحملون معهم بعض الأكل والماء وقد يحدث ذلك في فصل الخريف حيث الطقس الصحو وقيام الحشائش وقدوم بعض الغزلان الصغيرة للمنطقة.

وقد تكون الرحلة في العصاصير، والعصاصير هي مكان عصر السمسم لإخراج زيت السمسم وفي ذلك الزمان كان زيت السمسم هو الزيت الوحيد المستعمل في الأكل مع السمن – عند بعض الأسر فوق الفقر – وكانت عصاصير أم درمان في داخل المدينة في حلة اسمها حلة العصاصير بالغرب من حلة الركابية الحالية ولكنها أبعدت العصاصير إلى غرب أم درمان لابعاد الجمال من داخل المدينة.

والعصارة التي تُديرها الجمال عملية فنية معقدة تبدأ بالأساس وهو حق من الخشب عبارة عن جزع شجرة مفرغ يثبت على الأرض ثم يدخل به (الولد) والولد هذا عبارة عن عود من الشجر أيضاً قريب في حجمه من فتحة الحق ثم يوصل الولد بذراع طويل يربط على ظهر الجمل الذي يتحرك في شكل دائرة حول العصارة وتجري عملية العصر بواسطة الولد للسمسم الذي يصب في الحق ويضغطه (الولد) ليخرج منه الزيت تدريجياً.

في مرحلة من مراحله سحق السمسم يتحول إلى ما يسمى (أم جغوغة) والاسم ناتج من الصوت الذي يتسبب بعد أن يتحول السمسم إلى خليط من الزيت وما تحول إليه السمسم.

(أم جغوغة) عبارة عن سمسم مطحون في شكل عجينة مشبعة بالزيت والسمسم. ومن دوافع أولاد الحلة لزيارة العصاصير أكل (أم جغوغة) ولأكلها طرق عديدة منها أن يضاف إليها الملح والتوابل ثم تؤكل بالكسرة أو الرغيف وقد يضاف إليها الطماطم ويمكن أن يضاف إلى (أم جغوغة) بدلاً من الملح والتوابل من شطة وشمار وخلافه، يمكن أن يضاف إليها السكر وتتحول إلى ادام آخر قد يؤكل بالكسرة أيضاً أو الرغيف أو بدونهما.

وعادة جرى التقليد عند أصحاب العصاصير أن تقدم أم جغوغة لكل زائر للعصاصير دون مقابل.

ومن هوايات أولاد الحلة المتعددة قد يقوم بعض أولاد الحلة بتمثيل رواية وينصب لها مسرح صغير في أحد (الحيشان) ويحضر لها أهل الحي رجال ونساء وقد يدفعون مقابل ذلك رسوم مشاهدة.

هناك من أولاد الحلة من له صوت رخيم ويعشق الغناء ويقوم بغناء الأغاني المعروفة لبعض المغنين المشهورين وكذلك من مناشط أولاد الحلة ترديد (الدوبيت) وربما في المساء عند الجلوس عند ضوء مصباح الشارع ومن خلال تمثيل الروايات قد يكون من أولاد الحلة من له ملكة الإضحاك فتلقى بعض المنلوجات المضحكة والنكات.

الحلة التي نتحدث عنها مكونة من شارع رئيسي على طرفه عمود كهربائي يضاء بالليل وبعد ذلك عدة أزقة صغيرة وقد تجاور الحلة حلال أخرى ولها أولاد حلة وسكان ولها اتصالات بعضها قوي والبعض الآخر أقل قوة مع الحلة المعنية.

وللحلة حماة يقومون بحراسة الحلة من أولاد الحلة الكبار، وعندما يهبط المساء يجلس هؤلاء الحماة أو الحراس في أطراف ومداخل الحلة يسألون كل داخل إلى الحلة يشك في شكله أو ملبسه وطريقة دخوله ويستفسرون عن وجهته وقد يرد الداخل إلى خارج الحلة. هؤلاء الحراس من أولاد الحلة يحملون العصي الغليظة أو عصى الخيزران القوية وبعضهم يحمل (بوكس) من الحديد يضعه في جيبه إذا دعت الضرورة لاستعماله إذا تابط القادم شراً.

ومن النادر أن يشاهد المرء عسكري شرطة في مثل تلك الحلال إلا إذا كان من سكان الحلة والشعور بالأمن متوفر والاستقرار متوفر وقد كان الدافع الأساسي لوجود حماة الحلة هو توفير الأمان والضمان لبنات الحلة فقد يحدث أن يشاهد غريب إحدى فتيات الحلة في حفل زواج – وهو المكان الوحيد الذي يمكن مشاهدة الفتيات فيه – ويعجب الغريب بالفتاة ولذا يجازف ويحاول دخول الحلة عسى أن يجد الفرصة لمشاهدتها أو التعرف عليها أو على دارها.

وهذا الأمر يقودنا إلى القول بأن أي بنت من بنات الحلة هي أخت أي ولد من أولاد الحلة والعكس صحيح كما أن أي رجل في الحلة هو أب جميع أولاد وبنات الحلة وأي أم هي كذلك والأب يزجر ويضرب ويلعن وكذلك الأم بالنسبة لبنات الحلة والكل يعرفون بعضهم البعض فالحلة في الواقع مجموعة واحدة.

الرجال يجتمعون مع بعضهم البعض كل مساء عند صلاة المغرب والعشاء يتبادلون الحديث والسؤال عن أحوال بعضهم البعض كما يتبادلون الأخبار العامة والخاصة وفي حالة غياب أي شخص يسأل عنه الآخرون ويزورونه في داره إن كان به مرض ويواسونه إن كانت لديه مصيبة في أهله الأباعد وفي حالات المناسبات الخاصة مثل الولادة أو الابلاء من مرض أو تقويم نذر تأتي الموائد إلى مكان الصلاة عند الشيخ مهما كانت

البعض الآخر وهم من فوق الفقر بقليل قد يحضرون العشاء والشاي بالنعناع.

أما نساء الحي فاجتماعهن أكثر من اجتماع الرجال فهناك النهار بطوله والرجال غائبون في الأسواق والأعمال. فبعد الفراغ من نظافة البيوت وتحضير الأكل تتزاور النساء للحديث والونسة و(القطيعة) وهي الحديث عن الآخرين وهناك نساء متخصصات في تتبع أخبار الآخرين ويجدن في نقلها متعة وأثناء النهار قد تحتاج واحدة من نساء الحلة إلى شيء وهي تجهز أكلها بدءاً من النار اي ترسل الواحدة بنتها إلى جارتها تطلب منها (النار) ويكون ذلك في شكل عود من الخشب متقد تبدأ به الجارة نارها أو يكون ذلك شيء من الجمر المتقد أو عود ثقاب أو حتى (طايوقة) لأن دوكتها أو صاجها ناشف لا يساعد في عواسة الكسرة وقد يصل الأمر إلى طلب شيء من الملح والبهارات.

الأمر كله مرفوع منه الكلفة والكل يعرف أن الجميع أما فقراء جداً أو فقراء أو أحسن من الفقر قليلاً ولذا لا تخجل الجارة من طلب أي شيء من جارتها لأن الأخرى هي كذلك إذا دعت الحاجة.

وقد يمتد الأمر إلى طلب صحن (ملاح) لأن الجارة قد جاءها ضيوف دون إنذار سابق – هذا هو الوضع الطبيعي في الحلة لا إنذار وتنبيه يأتي الزائر متى أراد وكيف ما يريد وطلب صحن ملاح أمر عادي في الحلة.

وقد تجتمع بعض النساء في المساء عندما يكون الرجال عند (الشيخ) للصلاة وقد يكون الاجتماع عادياً وقد يكون لإجراء عملية (الدخان) في مجموعة في كل بيت وفي جانب إقامة النساء توجد حفرة الدخان ومستلزماته من (شملة) وهي شبيهة بالبطانية أو الفرشة مصنوعة من الصوف سميكة وكذلك الطلح والشاف والكليت وهذه الثلاثة أنواع الحطب الذي يستعمل في الدخان وتتبادل الجارات في الحلة الجلوس على حفرة الدخان مع الغطاء بالشملة لحجز الدخان في داخلها حتى يتكثف على

الجسم وهذه الممارسة عملية خاصة بنساء السودان الشمالي ربما جاءت من الفراعنة أو الشعوب التي كانت في تلك المنطقة قبل وصول العرب إليها.

وقد تجتمع النساء إذا كانت للأسرة مناسبة قادمة مثل زواج إحدى البنات أو الأولاد أو ختان الأولاد أو خفاض البنات وفي تلك الاجتماعات تساعد نساء الحلة صاحبة المنزل في إعداد لوازم الفرح من عطور وأكل مثل إعداد الشعيرية أو السكسكانية أو تجهيز الشرموط أو البصل.

وتبادل الأواني والحلل والصحون أمر عادي وطبيعي فليس لدى أي أسرة كل ما يمكن أن يستعمل عندما تكون هناك مناسبة معينة ولذا تتبادل نساء الحلة الأواني.

كما أن هناك ممارسة عند بعض نساء من هم أحسن قليلاً من حالة الفقر وهي المشاركة الجماعة في إقتناء الأواني من الصيني والزجاج بأن تشترك النساء شهرياً بمبلغ معين تقتصده ست البيت من مصروفها ويجمع المبلغ وتشتري به كمية من الصيني والزجاج لواحدة منهن وبسعر الجملة من السوق (الكبير) ثم بالتوالي كل شهر يكون نصيب واحدة من نساء، وعملية الصندوق تبدأ باتفاقٍ بين عدد من نساء الحلة على أن تدفع الواحدة كل شهر مبلغاً معيناً يتفق عليه حسب استطاعة المجموعة وفي أول الشهر يسلم المبلغ لواحدة وهكذا بنفس طريقة شراء الأواني والصيني وقد يعطي الأسبقية لصاحبة مناسبة.

ومن مناسبات اجتماع نساء الحلة عملية (المشاط) فهناك المشاطة التي قد تكون من نساء الحلة أما تقوم بالمشاط بمقابل أو دون مقابل وقد يكون ذلك مشاط عادي وقد يكون مشاط لمناسبة معينة واجتماع المشاط قد يكون مجال للونسة ونقل الأخبار وقد أشتهرت بعض المشاطات بنقل الأخبار من حلة إلى حلة.

فبالرغم من الفقر الشديد والفقر ومن هو أحسن من الفقر قليلاً بالرغم ذلك نجد أن هناك أنشطة كثيرة في الحلة تدل على الرضى والسعادة وتبادل المنفعة والتكافل والتعاضد والجميع لا ينظرون إلى الأغنياء ولا يحسدون أصحاب المال والبيوت الكبيرة من الطوب والحجر وكل في دخيلة نفسه يحمد الله ويقول ليس في الامكان أحسن مما كان. وفي كثير من الأحيان في المساء بالحلة تسمع (الزغاريد) وهي دليل على السرور والفرح ويسمع ضحك الرجال وهم يجلسون يتآنسون ما بين صلاة المغرب والعشاء ويتبادلون النكات والقفشات والمقالب ويتحدثون عن الحمير وعن الغنم الولودة أو اللبونة ويتفاخرون بالحمير كما يتفاخر الأغنياء بالسيارات. وأن حمار فلان قد سرق وغاب فترة من الزمن ثم عاد الحمار إلى مربطه بعد أن غافل السارق وعن الغنم التي تخرج في الصباح بعد الحليب وتعود في المساء إلى بيوتها ربما مع الراعي وربما دون راعي.

وفي الحلة كلبان مشهوران (فلة) و(جركاس) وهما من النوع الكبير الشرس كثير النباح ولكن (فلة) و(جركاس) يعرفان كل أهل الحلة الصغير والكبير الرجل والمرأة والطفل فلا تنبح (فلة) ولا ينبح (جركاس) إلا إذا شاهدا غريباً في الحلة وإذا مرَّ أحدهما بأي بيت يقدم له فضلات الأكل، ومن عادة (فلة) و(جركاس) النوم معظم النهار واليقظة كل الليل يحومان حول الحلة وتلك هي الحراسة الحقيقية للحلة فإذا حدث أن أزداد نباح (فلة) وجركاس في ليلة من الليالي يخرج رجال الحلة يحملون العصي لرد الغريب الذي تسبب في نباح (فلة) و(جركاس) وفي الغالب الأعم يكون الغريب لصاً وقد يكون الغريب ضيفاً قادماً من بعيد لأحد بيوت الحلة.

ومن طرائف (فلة) أنها في يوم ما صارت تنبح على أحد أولاد الحلة فاستغرب هو عن السبب وصار ينادي عليها (يا فلة أنا أمين يا فلة أنا أمين) وحوله أولاد الحلة يضحكون واصبحت إحدى نكات الحلة.

والملاحظ في الغالب الأعم أن رجال الحلة من أصحاب المهن ومن النادر أن تجد في الحلة المدرس أو الموظف وفي هذه الحلة التي نتحدث

عنها لا تختلف كثيراً عن كل حلال أم درمان نجد الطيـاني وبـائع القـش والدقاق والحداد والنجار والترزي والمنجـد والـصرماتي (وهـو صـانع الأحذية) والجلاد الذي يصنع حقائب جفاير السكاكين والسيوف.

ذلك كان حال آباء الحلة والبيوت من الطين والأبـواب مـن خـشب السنط ولها (طبال) من الخشب وله مفتاح من الخشب طوله قد يزيد علـى القدم يدخل من فتحة بجانب الباب ثم يرفع ويسحب الذراع من الخشب الذي يكون داخل الحائط ويربط الباب بالحائط وبالرغم من بساطة القفل الخـشبي قد يستحيل على الداخل أن يتمكن من فتح الباب دون المفتاح المخصص له والأبواب ثقيلة الوزن وفي فتحها وقفلها صوت معين قد ينبه أهل البيت بأن هناك داخل للبيت.

والملاحظ أن أولاد الحلة الذين نشأوا في ذلك الفقر الشديد أو الفقـر أو أحسن من الفقر قليلاً نجد معظم أولاد الحلة قد تحولوا إلـى مهندسـين ومدرسين وأطباء واقتصاديين وعلماء وحتى الذين لم يواصـلوا تعلـيمهم تحولوا إلى أصحاب رأس مال كبير وارتدوا البناطلين والغالي مـن الثيـاب وركبوا السيارات.

قد نجد في منزل واحد ثلاثة أو أربعـة مـن أولاد الحلـة صـاروا مهندسين وفي منزل آخر ثلاثة من أولاد الحلة ضباط في الجيش وفي منزل آخر نجد اقتصادي وخبير أشعة وإداري وموظف بنك هكذا صار أولاد الحلة وكما ذكرنا فإن الأمر لم يكن قاصراً على هذه الحلة التي نتحدث عنها بـل الأمر عام على معظم حلال أم درمان وهكذا تطورت أم درمان مـن جميـع الوجوه.

والسؤال الكبير هو كيف تطورت أم درمان بأبنائها وصارت جـوهرة السودان في جميع مناشط الحياة من الاقتصاد للـسياسية للفـن للرياضـة للأدب للشعر للغناء؟.

كانت الفرص متساوية بين الفقير جداً والفقير ومن أحسن من الفقـر قليلاً وكذلك حتى الأغنياء أولادهم متساوون في الفرص مع أؤلئك، فلم يكن

لهم ميزة خاصة على أولاد الفقراء جداً أو الفقراء ومن هم أحسن من الفقراء قليلاً اللهم إلا في مأكلهم أو ملبسهم أو مظهرهم، أما في المدارس أو العمل فالكل سواء حسب مقدرته وجهده.

الحلة في أم درمان هي التجمع الإنساني بعد الأسرة مباشرة إذا اعتبرنا أن الأسرة هي الأساس أو القاعدة وبالرغم من أن هناك مجموعات من الأسر ينتمون إلى اصل واحد أو قبيلة واحدة أو أسرة كبيرة قدمت كلها إلى أم درمان إلا أن تخطيط السكن الذي قامت به الإدارة البريطانية جعل معظم الأهل الذين ينتمون إلى بطن واحد يسكنون في منطقة واحدة قد تكون جزء من الحلة أو تكون حلة قائمة بذاتها ومن ثم يحدث الاتصال بالأسر الأخرى القريبة، أما لتكون الحلة أو الحي الذي يحتوي على عدد من الحلال.

من النادر أو قد يكون من المستحيل أن تجد بيتاً للإيجار أو مؤجراً فكل الساكنين في الحلة يمتلكون منازلهم التي في الغالب تكون قد وزعت بواسطة مفتش مركز أم درمان الإنجليزي الذي صدق بالتوسع في أم درمان غرباً أو شمالاً أو جنوباً فليس بالإمكان التوسع شرقاً لوجود النيل.

وقد يحدث أن أسرة تقدم إلى الحلة باحثة عن سكن مع بحثها عن العمل حسب ضرورات الحياة في أقاليم السودان المختلفة والذي يحدث أن تسمح أسرة للقادمين الجدد بالسكن معهم في دارهم دون مقابل حتى يجدوا لهم سكناً مناسباً وقد يعتبر البعض إيجار المنازل عيب. لذلك نجد أنه مهما كان عمل رجال الحلة وضيعاً إن كان زبالاً أو طياناً فإنه يسكن في منزل يمتلكه يأوي إليه عياله وقد يكون قد قام ببناء المنزل بنفسه أو بمشاركة جار له تعاوناً في بناء منزليهما.

ومن مظاهر التعاون الجماعي في الحلة ما يقوم به أولاد الحلة في الخريف عند هطول الأمطار الغزيرة فقد كانت الأمطار في أم درمان قبل امتداد التصحر جنوباً قد تصل كثافتها أن تنهد بعض المنازل القديمة أو التي لم يتمكن اصحابها من تزبيلها قبل الخريف.

قد يستمر هطول الأمطار لعدة ساعات ولكن بمجرد توقف نزول المطر يخرج أولاد الحلة دون دعوة أو سؤال إلى كل بيوت الحلة ويتعاونون في إخراج المياه الغزيرة التي تنحبس داخل الحيشان وقد يضطر الأمر إلى إحداث فتحات في حائط السور لإخراج المياه وتوصيلها إلى (الخيران) أو الجداول التي تقوم الحكومة بحفرها قبل فصل الخريف وتشرف مصلحة التنظيم على حفر هذه الخيران في وقت سابق للخريف فعادة ما كان الأمطار تبدأ في يونيو (شهر ٦) وقد يبدأ (الرشاش) قبل ذلك أما في شهر يوليه (شهر ٧) وأغسطس (شهر ٨) فقد تكون كثافة الأمطار بمعدل كل يوم.

والطريف في الأمر بالرغم من أن أهل الحلة وكل أهل أم درمان لا يزرعون في الخريف إلا قلة فمن لهم مزارع صغيرة في غرب أم درمان إلا أنه إذا تأخر الخريف خرج أهل أم درمان وخاصة الصغار والعجزة والنساء إلى غرب أم درمان لصلاة الاستسقاء ويؤمهم شيخ عمر الأمام ومن بعده أبنه شيخ عوض عمر والغريب في الأمر أن الاستجابة في الغالب الأعم تكون فورية ما أن أنتهت الصلاة وعاد الناس إلى مساكنهم وربما قبل أن يصلوا إلى مساكنهم يبدأ هطول المطر.

ومن المعتقدات الطريفة أيضاً أنه ربما يتأخر صاحب منزل في (تزبيل) منزله أي غطاءه بالزبالة وتتلبد الغيوم كما حدث للعجوز (سلطة) ويبدأ الشخص بالدعاء لعدم نزول المطر وهناك طريقة أخرى يعتقد بها البعض وهي أن يقوم صاحب المنزل بتكحيل قطة أي وضع كحل في عيون القطة وتركها تجري مكحلة فذلك قد يوقف نزول المطر والواقع أنه تكاد يكون من المستحيل أن يتمكن صاحب المنزل من القبض على قطة أو تكحيلها فالقطط في الحلة متوحشة وغير أليفة وهي أحد أعداء اصحاب أبراج الحمام.

ومن المسائل الطريفة والغريبة في الحلة أن أهل الحلة وأولاد الحلة بالذات لا يعرفون الفاكهة إلا ما يقرأونه في كتب المطالعة في المدرسة والجملة المشهورة في المدرسة في كتاب النحو (أكل الفاكهة ينقي الدم لاسيما تفاحة على الريق) في ذلك الزمان لم يكن أولاد الحلة يعرفون التفاح إلا بصورة التفاحة في الكتب.

والفاكهة الوحيدة المعروفة لدى أولاد الحلة - إذا اعتبرت فاكهة - هي البطيخ والشمام ثم (العنكوليب) وقصب السكر في مواسمها. ولكن لله حكم فأولاد الحلة يأكلون التمر وفي أول موسم التمر يأكلون (الرطب) كما يأكلون النبق الذي يجلبه العربان من خلاء غرب أم درمان ويكون رطباً في موسمه والقضيم والقرقران وهي أيضاً من فواكه الصحراء والحنبك الذي تنتجه شجرة (الطندب) وهو اشبه بالعنب وكذلك (الشاو) وهو ما تنتجه شجرة الآراك. وهناك الدوم وفي بعض المواسم يجد الناس الدليب في السوق والفاكهة الوحيدة التي يمكن أن تسمى فاكهة ويمكن لأولاد الحلة أو على الأقل بعضهم الحصول عليها هي الموز.

وفي ذلك الزمان لا يمكن أن يقول المرء أن أولاد الحلة يعانون من الحرمان لأن المبدأ البشري الأساسي هو لا يمكن أن تفتقد مالا تعرفه فهم لا يعرفون التفاح أو العنب أو الكُمثرى أو الخوخ أو الفراولة كل ذلك اسماء في نظرهم تستعمل في كتب المطالعة في المدرسة أو في قصص الحبوبات في أحاجي المساء.

ولله سبحانه وتعالى شئون، فإن تكملة الغذاء لأولاد الحلة تأتي من عدد من الباعة المتجولين، هناك بائع السمك المحمر الذي يحمله على (طشت) فوق رأسه وينادي عليه وهناك بائع (الدندرمة) الذي يجر عربية في الحلة وينادي بجرس أو صفارة وهناك بائع الغريبة الذي يحمل (الغريبة) وهي خبيز مسكر ناعم وينادي (غريبي يا غربتي) وهو في الأصل معروف لأولاد الحلة أما شامي أو مغربي.

أولاد الحلة لا يعتقدون أن هناك أولاد آخرين في حلة أخرى أسعد منهم فهم سعداء بحالهم يضحكون ويلعبون ويتقاتلون معظمهم ينام على عناقريب بها بروش وليس مراتب ويذهبون إلى المدارس أو الخلاوي بأرجلهم ليس في الحلة (عجلة) واحدة وإذا تمكن أحد أولاد الحلة من توفير تعريفة أو قرش فقد يُؤجِّر عجلة لمدة ساعة أو نصف ساعة من العجلاتي الموجود في طرف ميدان البوستة ولأولاد الحلة قصص وطرائف مع ذلك العجلاتي المشهور.

ولأولاد الحلة فرقة تمثيل يمثلون روايات بعضها مضحك والبعض الآخر يروى قصص الحب في البادية وفي ذلك الزمان كانت هناك رواية السالم والسريرة ويقف السالم على المسرح البدائي المكون من صناديق عليها بروش ويقول:

يا السريرة بتقطع ضكرك (ذكرها) ويسل طاريك

أنا سارح بالخلى مباريك

وطبعاً كلمة ضكرك يقصد بها ذكرك وبين الفصول تغني الفرقة الغنائية لأولاد الحلة الأغاني الشهيرة للفنانين الكبار مثل كرومة وسرور ويشاهد تلك الحفلات الآباء والأمهات والبنات من أهل الحلة ويضحكون ويسعدون ويدفعون تذاكر الحفلة قرش أو قرشين وقد يكون هناك ولد شاطر من أولاد الحلة يبيع للمشاهدين أكياس التسالي الذي كان يسمى (الجرم) أو الفول المدمس الذي يحمسه في الدوكة أو الصاج في المنزل ثم يضعه في غراطيس من الورق.

* * *

(٤)

عندما وصلنا في هذا السرد إلى هذه النقطة يثور السؤال: اين بنات الحلة، نعم أين بنات الحلة. في الحلة عدد من البنات بنفس عدد أولاد الحلة أو أكثر قليلاً في كل البيوت ولهن عالم كبير مثل عالم أولاد الحلة ولكن في الغالب الأعم خلف الأسوار وداخل البيوت ومن النادر أو المستحيل أن ترى أحدى بنات الحلة التي تخطت الثانية عشرة أو الثالثة عشر سائرة في الطريق.

البنات الصغار يذهبن إلى المدارس مثل أولاد الحلة مع وجود مدرسة أولية نموذجية قريبة من الحلة للأولاد توجد مدرسة أخرى نموذجية للبنات.

تخرج البنات إلى المدرسة يرتدين الفساتين الطويلة والطرحة في زي مدرسي نظيف والملاحظ أن أولاد الحلة بعد يوم واحد من الأسبوع تتسخ ملابسهم أما البنات فيظللن نظيفات لأنهن لا يلعبن مثل الأولاد في الشوارع المتربة ولا يتصارعن.

وبعد إكمال المدرسة الأولية تتوقف معظم بنات الحلة عن مواصلة الدراسة في المدرسة وتبقى البنات في داخل البيوت ليتعلمن من الأمهات والأخوات الأكبر سناً كيف يمكن للبنت أن تكون ربة منزل تجيد الطبخ وتنظف المنزل وتغسل الملابس.

وهناك قلة من بنات الحلة يواصلن الذهاب إلى المدرسة الوسطى الوحيدة في ذلك الزمان الحكومية وفي هذه المرحلة تتحول الطرحة إلى ثوب مثل ثياب الأمهات وتسير الفتيات متحشمات مثل امهاتهن إلى المدرسة الوسطى يحملن حقيبة الكتب ولا يتلفتن في الطريق ولا يتحدثن.

وفي المدرسة الوسطى بالإضافة إلى التعليم الأكاديمي تواصل المدرسة في تعليم البنات مهام المرأة داخل البيوت وبنفس الطريقة التي تعلم بها الأمهات بناتهن في المنزل ويكتمل ذلك التعليم عندما تعود البنات إلى البيوت وفي العطلات المدرسية.

وبالرغم من وجود مدرسة ثانوية حكومية للبنات وهي الوحيدة في السودان معها مدرسة أخرى لتدريب المدرسات، بالرغم من ذلك فإن فتيات الحلة التي نتحدث عنها لم يفكرن في دخول المدرسة الثانوية ولأسباب عدة بالإضافة إلى وصولهن سن النساء فإن بعضهم يتسارع أبناء الأهل وأبناء الحلة إلى التقدم لخطوبتهن وهنا تتوقف الدراسة الأكاديمية ويضاف إلى تعليم البنت كيف تكون زوجة.

وفي داخل الحيشان تمارس البنات العديد من الألعاب الخاصة بالبنات حسب السن كما هو الحال عند أولاد الحلة. فهناك الصغيرات اللاتي يمارسن لعبة (أمات أمات) أي يمثلن دور الأمهات ويستعملن لُعباً للبنات مصنوعة من الخرق والقطن و(الدملوج) وتصنع منه وجه ورأس بنت (اللعاب) وهي دمية و(الدملوج) هو مادة تستخرج من داخل نواة اللالوب تسحن كعجينة وتصنع منها بنت (اللعاب). وهناك نساء وفتيات لهن إجادة صنع بنت (اللعاب) وهي كلمة مشتقة من اللعب ويرسمن لها الشلوخ بالسجم والشعر من شعر الغنم.

أما بنات الحلة الأكبر سناً فيلعبن الحجلة وهي رسم على الأرض عبارة عن مربعات أو دوائر وتفقز البنات من دائرة إلى دائرة أو من مربع إلى مربع وللعبة قواعد ونظم تعرفها بنات الحلة كما أن هناك نشاطات أخرى لبنات الحلة فيها الجري داخل الحيشان وهناك نط الحبل أما انفرادي بأن يكون للبنت حبل تمسك طرفيه وتديره حول جسمها وعندما يأتي الحبل إلى أسفل تقفز البنت في حركة منظمة، وهناك نط الحبل الذي تشترك فيه أكثر من بنتين بأن تمسك بنتان بطرف الحبل الطويل ويبدأن في لف الحبل في شكل دائري وتدخل البنت الثالثة أو الرابعة ويقفزن في كل مرة يصل

الحبل في دورانه إلى الأرض ويستمر اللعب إلى أن تخطئ البنت التي تقفز فيحدث تبادل الأدوار بين لف الحبل والقفز عليه.

وهناك ألعاب أخرى يمارسها كل أهل الحي الرجال والنساء والأولاد الحي وبنات الحي وهي لعبة (المنقلة) ولها أشكال مختلفة وأنواع مختلفة ولكن في الغالب الأعم عبارة عن حفر حفر صغيرة على الأرض ومن جانبين بعدد معين وتتكون اللعبة من شخصين ولكل واحد عدد من الحصى وتبدأ بتحريك الحصى من حفرة إلى حفرة بالتناوب وبخطة معينة من كل جانب يحاول بها كل طرف الحصول على حصى الطرف الآخر. وهناك أخرى أبسط من ذلك وهي ما يسمى (سفرجت) أو السيجة وهي عبارة عن ستة حفر ثلاثة من كل جانب وثلاثة في الوسط ويضع كل لاعب ثلاثة حصوات في الجانب الذي يليه وتبقى ثلاثة حفر خالية ولعدم الخلط أن يكون لواحد حصى وللآخر نواة تمر ويحاول كل لاعب حصد حصوات الآخر أثنين من حصواته وبذلك يفوز عليه.

ومن أهم ما تتعلم بنات الحلة داخل البيوت صنع الطواقي. وتصنع الطواقي من القماش والحرير وهناك أكثر من طريقة. فالطريقة الأولى تصنع الطواقي باليد بأن يقسم القماش في شكل شرائح تطبق ويتم توصيل تلك الشرائط بغرز معينة من الحرير وتكون الشرائح بمقاسات مختلفة وغالباً ما يكون بالطاقية ثلاثة دوائر (وقطية) أي الجزء الأعلى في الطاقية الذي يوصل به أقصر الدوائر ويتم عمل ذلك كله بالأبر والخيط.

أما الطريقة الثانية فهي طواقي النسيج والمنسج هو عبارة عن جهاز من الخشب له أرجل وله أطراف متحركة في فتحات في تلك الأرجل ويشد القماش من جانبي المنسج وتعمل الفتاة في إدخال وإخراج الأبرة التي بها الحرير سواء كان أبيضاً أو في الغالب ملوناً ويتم رسم نفس الشريط الذي يعمل باليد يتم رسمه في قماش المنسج ويظل إدخال نسج الحرير على الطريقة المطلوبة ويفك القماش المشغول ويقص في نفس شكل الشرائح التي تتكون منها الطاقية.

عمل الطواقي عملية موروثة من زمان بعيد أي منذ أن لبس الرجال الطواقي وفي واقعها إحدى واجبات بنات الحلة الرئيسية أما للأخوان أو للأزواج أو للزوج المرتقب.

وكانت العادة أن من بين الأشياء التي تقدمها العروس لعريسها أن تعمل له طقم مكون من طاقية وتكة - والتكة هي ما يربط به السروال - وتخاط أطراف (التكة) أو (الدكة) بالحرير بنفس الرسم الذي يوجد في الطاقية وكذلك عدداً من المناديل.

وقد يتطور الأمر وخاصة الرسم بالحرير بالمنسج قد يتطور إلى الرسم على أطراف العمم وكذلك أطراف ثياب النساء والملافح للرجال كل تلك الأعمال أساساً من أعمال البنات داخل البيوت وكانت الشغل الشاغل للبنات ويتعلمن ذلك من الأمهات لكن تطور الأمر في الوقت الحاضر فأصبح الرجال يقومون بكل أعمال الخياطة ثم تطور أكثر من ذلك وأصبح الطواقي والعمم والملافح المشغولة والثياب تستورد من الخارج فقد توصل النساجون في الخارج في الهند والصين وغيرها إلى صنع آلات تعمل كل ذلك العمل وباتقان أكثر وبأشكال مختلفة.

ومثل ما تحول الرجال إلى مهن النساء تحولت النساء إلى مهن الرجال فتعلمن فوق الوسطى إلى الثانوية ثم الجامعة ثم ما بعد الجامعة وتعلمن وظائف الرجال.

نعود مرة أخرى إلى الحلة وبنات الحلة، كما ذكرنا سابقاً بأن معظم أهل الحلة من الفقراء جداً أو الفقراء أو ما فوق الفقر بقليل ولذا لم يكن بالحلة خدم منازل ومن أعمال البنات لمساعدة الأمهات يقمن بعملية غسل الملابس وهي في الغالب مرة في الأسبوع تجمع ملابس كل من بالمنزل ثم توزع (الطشاطة) ويبدأ الغسل الأول عند واحدة لتزيل الكثيف من الأوساخ ثم تحول نفس القطعة إلى الثانية التي تقوم بمضاعفة الغسل ثم تحول نفس القطعة إلى المرحلة الأخيرة وهي إكمال النظافة ثم إزالة ما علق بالقماش من الصابون.

لقد كانت في أم درمان مصانع صابون صغيرة غير بعيدة عن الحلة وبما أن أهل الحلة فقراء جداً أو فقراء فإن أسعار الصابون المكون في شكل مكعبات معينة أسعاره غالية فإن معظم أهل الحلة يذهبون إلى تلك المصانع ويشترون (قطاع) الصابون وهي القطع الصغيرة الناتجة من تكون المكعبات وتلك تباع رخيصة وعند بداية غسيل الملابس توضع تلك القطع في ماء توقد تحتها النار ويستعمل السائل الساخن من الصابون في غسيل الملابس وذلك الغالب الأعم عند أهل الحلة.

أما عملية كي الملابس، فقد يقوم أولاد الحلة الكبار بكي ملابس الرجال وتعمل البنات على كي ملابس النساء.

ومن الأعمال الأساسية التي تتعلمها بنات الحلة عملية عواسة الكسرة ومراحلها المختلفة من عجن العجين ثم تخميره بطريقة معينة ثم العواسة. وفي ذلك الزمان كانت الدوكة داخل التكل هي الوسيلة الأساسية لعواسة الكسرة ثم جاء الصاج الحديدي بعد ذلك وجاء الغاز الأبيض وكان يطبخ به من هم من طبقة أحسن قليلاً من الفقر الشديد وأما الفقراء يعوسون أو يطبخون أما بالحطب أو الفحم، أما الفقراء جداً والفقراء هؤلاء يستعملون (التمام) وهو قش ينبت في الأرض شبه الصحراوية ويجمعه العربان وكانوا يحضرونه من الخلاء ليباع في المدينة وكانت ربطة التمام بمليم واحد.

وعملية العواسة لها أشياء ومتطلبات أساسية مثل الطايوق والقرقريبة وهي آلة يبسط بها العجين على الدوكة والتملة وهي قطعة القماش التي تستعمل لنظافة الدوكة أو الصاج حتى لا يلتصق العجين بالدوكة، وطريقة رفع الكسرة من الدوكة عملية تحتاج إلى مران ومعرفة دون تعريض الأصابع للاحتراق.

ومن الأعمال التي تقوم بها النساء وتعلمها لبنات الحلة خياطة الملابس أي ملابس النساء ولكنها تحتاج إلى مكنة خياطة من شركة سنجر

وليس بإمكان الفقراء جداً والفقراء الحصول على تلك المكنات وربما بإمكان من هم أحسن قليلاً من الفقراء الحصول على تلك المكنات وقد درجت شركة سنجر على بيع تلك المكنات بالأقساط ولذلك ربما تتمكن بعض فتيات الفقراء من شراء المكنة على أن تعمل على خياطة ملابس نساء الحلة وإذا برعت بنت الحلة في الخياطة والتفصيل فربما تجد زبائن أكثر من الحلال والقرى المجاورة.

ومن مصادر الدخل لبعض الأسر الفقيرة خياطة ملابس النساء وخاصة ملابس العروس فتلك تحتاج إلى خبرة وفن وتدر على الفتاة العاملة دخلاً محترماً وقد تشتهر بأجادتها بعض الفتيات فتأتي لها أمهات العرائس من الحلال الأخرى لخياطة ملابس بناتهن.

وقد ذكرنا أن من مهام العجائز رواية الأحاجي للأطفال قبل النوم حتى ينامون ولكن هناك بعض الأطفال المولعين بالأحاجي لا ينامون أثناء الأحاجي ولذلك هناك وسيلة لجلب النوم للأطفال وهي وما يسمى (اللولاي) وهو عبارة عن أغاني خفيفة تغنى للطفل وبنغمة معينة حتى ينام ومن أشهر تلك الأغاني (دوها يا دوها) وهي تقول:

دوها يا دوها   بئر زمزم خدوها   والحجاج شربوها

بابا سافر مكة   جاب لي حتة كعكة   والكعكة في المخزن والمخزن ماليه مفتاح والمفتاح عند النجار   والنجار عاوز فلوس   والفلوس عند السلطان والسلطان عاوز عروس   والعروس عاوزة المنديل   والمنديل عند الجهال   والجهال عاوزين اللبن   واللبن عند البقر .. والبقر عاوزة الحشيش   والحشيش عاوز المطر   يا ربي تجيب المطر.

وغالباً ما يتابع الطفل هذا التسلسل إلى أن ينام.

ومن ذلك كله يتضح أن بنات الحلة يعتبرن عنصراً هاماً في الهيكل العام للحلة فهن في شغل شاغل ربما أكثر من أولاد الحلة داخل البيوت والبيوت التي ليس بها بنات في الحلة تجد نساءها في تعب شديد ودائم كما

ن أعمال بنات الأسر الفقيرة جداً والفقيرة من عمل الطواقي وخياطة الملابس وغيرها قد تشارك وتساعد في منصروفات المنزل لأن الطواقي بعد إكمالها تأخذها بعض الأمهات إلى سوق الطواقي وهناك نساء متخصصات في بيع الطواقي للرجال.

فإذا راجعنا الأمر نجد أن بنات الحلة في شغل شاغل أكثر من الأولاد والعملية في ذاتها عملية تدريب وتربية متواصلة وعلى طريقة تلقائية لتجعل من بنت الحلة زوجة وست بيت تتحمل المسئولية وقد يحدث أن تتوفي الأم فإذا البنت الكبرى تتولى إدارة المنزل حتى لو كانت في سن صغيرة أقل من العشرين عاماً.

وأمهات الحلة هنَّ اللاتي قمن بتربية الأولاد أيضاً الأمر الذي رفع مستوى الحلة تدريجياً وكما ذكرت تغير وضع الأسر من الفقر الشديد والفقر إلى مستوى قد وصل في بعض الحالات إلى الغنى.

وبسبب التعاون والتكافل والمودة بين أسر الحلة تتحول الحلة إلى أسرة واحدة وكثيراً ما يتزوج أولاد الحلة من بنات الحلة لا عن حب متناول وتشاور بل فقط بالمعرفة الدقيقة التي تعرفها الأمهات عن بنات الجيران والآباء عن أولاد الجيران وكذلك لموقف الآباء وسلوكهم وتعاونهم مع بقية سكان الحلة دخل كبير في أتخاذ قرارات الزواج.

هذا الأسلوب في الحياة في الحلة هو نفس الأسلوب في جميع حلال أم درمان ويندر أن يدخل غريب عن الحلة فيها ولذا وبمرور الزمن تكونت أم درمان من حلال متصلة ببعضها البعض وتعيش حياة واحدة وبطريقة واحدة وسلوك واحد وأخلاقيات واحدة ويستوي فيها الفقير جداً والفقير ومن هو أحسن من الفقر قليلاً أو كثيراً وذلك هو السبب الذي جعل من أم درمان جوهرة السودان في كل شيء وهي – أي أم درمان – الرائدة في السلوك وفي التقاليد والقيم.

ولا تنسى أن أم درمان صارت وبطريقة تلقائية مقراً للعديد من العلماء والصالحين ورجال الطرق الصوفية والوعاظ والمساجد العامرة بالمصلين وأن معهد أم درمان العلمي هو الجامعة الإسلامية العريقة التي قامت على نفس نمط ومقررات الأزهر الشريف ونشر العلم والفتوى للغنى والفقير.

كما أن خلاوي القرآن القائمة في جميع الأحياء حافظت على حفظ وتلاوة القرآن وبالرغم من وجود المدارس فإن التلاميذ ظلوا يقضون عدة سنوات في الخلاوي يتعلمون الكتابة والقراءة ويحفظون الكثير من القرآن الأمر الذي ساعد أولاد أم درمان بالذات بالتقديم والتفوق في المدارس الحكومية وغير الحكومية والذي من ثم أنتج قيادات لكل السودان.

وفي مجال تطور الحلة مع تطور أولاد الحلة حدث أن تطورت بنات الحلة وبعد أن حجز البعض داخل أسوار البيوت بعد المدرسة الأولية وحجز البعض الآخر بعد المدرسة الوسطى واصلت بعض بنات الحلة الدراسة في المدارس وتخرجت المعلمات من بنات الحلة وعملن في المدارس وفي نفس الوقت زاد دخل الأسرة الفقيرة جداً والفقيرة بعد أن أصبحت البنت مدرسة تشارك الأب والأم وود الحلة في منصرفات البيت وتغير نوع الطعام تدريجياً وبعد أن كان بالحي طاحونة واحدة للغلال أصبح في الحي مخبز للرغيف وأصبحت بعض الأسر تضيف الرغيف إلى مائدتها الأمر الذي كان نادراً أو معدوماً في المراحل الأولى من قيام الحلة.

وعندما كبر أولاد الحلة ظلوا مجموعة واحدة في جميع المجالات في البلد فمن الناحية الرياضية نجد أن معظم أو كل أولاد الحلة ينتمون أو ينتسبون أو يشجعون فريقاً واحداً من فرق الكرة الشهيرة وفي نفس الوقت نجد معظم أو كل أولاد الحلة ينتمون إلى حزب سياسي واحد بعد أن نشأت الأحزاب السياسية وأن دوائر الانتخابات السياسية في أم درمان ظلت مقفولة للبعض بسبب انتماءات أولاد الحلة العريقة منذ الطفولة.

مع تطور الحلة وأولاد الحلة صاحب ذلك تطور في الخدمات فأمتــدت مواسير المياه إلى داخل المنازل واصبح الاستحمام أو الابتراد أكثر من مرة واحدة في الأسبوع بل أصبح ذلك كل يوم كما أرتفع مستوى نظافة الملابس ونظافة الحيشان.

بعد أن دخلت الإنارة إلى معظم البيوت حتى مستوى الفقراء فقد صار اليوم أكثر طولاً وصار الأطفال يأوون إلى مضاجعهم متأخرين بالرغم مــن أن الحبوبات ظللن يقدمن الأحاجي إلا أن كتب المدارس صارت تحتوي على القصص وأصبحت شخصيات جديدة تظهر في معرفة الأطفال مثــل (عمــك تنقو).

وبالرغم من كل ذلك التغيير ظل بــائع القــش والطيــاني والــدقاق والترزي والصرماطي، ظلوا جميعاً في مهنهم إلا أن بارق الأمل ومجــرى التغيير بدأ يطل على الحلة وصار أولاد الحلة يختلفون عما كان عليه أبائهم عندما كانوا أولاد حلة، وتغيرت أحاديث مجالس الآباء والأمهات، وصــارت نجاحات الأبناء من أهم موضوعات الحديث واصبحت المدرسة مرحلة هامة في حياة كل أسر الحلة.

***

(٥)

وبالرغم من الأحداث المحزنة التي كانت تمر على الحلة مثل موت عدد من أولاد الحلة بالسل وموت البعض الآخر بالالتهاب السحائي وموت البعض الآخر في أحداث أخرى مثل غرق ثلاثة في النيل بسبب تعاطي (البنقو) وإصابة العديد من الأطفال والكبار بمرض الملاريا كل تلك الأحداث كانت بالنسبة لأهل الحلة أحداث طبيعية وأن مجرى الحياة سائر على هذا النمط منذ الأزل الولادة ثم الحياة بمشاكلها المختلفة ثم المرض ثم الموت وهذه الدائرة يعرفها أهل الحلة راضون بإرادة الله يسألونه العافية ويمتثلون لإرادته في الخير والشر.

برغم كل ذلك فإن الحلة قد تمر بحدث يترسب في الذاكرة وقد يعتبر معلماً من معالمها يشار إليه في المستقبل ويذكر مع أحداث حدثت قبله أو بعده بقليل أو معه.

ومن تلك الأحداث النادرة في الحلة يوم سطى اللصوص على منزل عكاشة، وعكاشة هذا صاحب سيارة تاكسي – وكان ذلك أمراً نادراً في الحي ـ وأن صاحب سيارة التاكسي يعتبر من الذين تخطوا مرحلة الفقر إلى مرحلة أحسن من الفقر وأنه ممن يأكلون رغيف العيش. كل يوم ويأكلون العسل والطحنية كل يوم في الأفطار وكذلك البيض ولذا فإن اللصوص كانوا يعتقدون أن عكاشة لديه من المال ما يمكن أن يسطون عليه.

السرقة في الحلة أمر لم يكن معروفاً في ذلك الزمان أولاً لأن معظم سكان الحلة من الفقراء جداً ومن الفقراء حتى أن بعضهم قد لا يغلق باب المنزل في المساء ويظل الباب مفتوحاً حتى الصباح لأن اللص إذا دخل إلى

بعض تلك البيوت قد يخرج منها فاقداً ملابسه التي يستولى عليها أهل البيت منه بالقوة فكلهم رغم الفقر أقوياء أشداء مقاتلون لأن مهنهم معظمها تحتاج إلى القوة والجهد.

أما حادث سرقة منزل عكاشة فقد كان في ليلة مظلمة من ليالي الصيف وعكاشة وزوجته ينامان في (الحوش).

جاء اللصوص إلى منزل عكاشة ولم يحاولوا دخول المنزل من الباب الرئيسي كما لم يحاولوا تسلق الحائط العالي بل استعملوا ربما عتلة أو قضيب قوي من الحديد لفك أحد شبابيك غرفة مطلة على الشارع.

تم للصوص فك الشباك وأخراجه من الحائط ووضعه على الأرض ثم دخلوا إلى داخل الحجرة وجمعوا كل الملابس وكل الفرش في الغرفة في الدولاب وبحثوا في كل ركن من الغرفة علهم يجدون مكاناً للمال فلم يجدوا شيئاً وخرجوا من المنزل ولم يشعر بهم أحد.

في الصباح اكتشف عكاشة وزوجته الحادث أو المصيبة وسريعاً ما ذاع الخبر في الحلة وتجمع أهل الحلة يواسون عكاشة وذهب عكاشة مسرعاً إلى الضبطية وبلغ عن السطو على منزل.

جاء رجال الشرطة ومعهم قصاص الأثر يركبون (بوكس) الشرطة وشاهد أهل الحي قصاص الأثر المشهور واسمه (أبو ضفيرة) والمعروف أن أبا ضفيرة هذا كان من أشهر وأعتى لصوص أم درمان ودخل السجن عدة مرات ويقال أن مفتش المركز قد توصل إلى اتفاق مع (أبو ضفيرة) بأن يعينه قصاصاً للاثر في الضبطية لأنه يعرف معظم لصوص أم درمان، وأن يتوقف أبو ضفيرة عن السرقة ويصبح موظفاً في الضبطية بمرتب.

نزل أبو ضفيرة مع عساكر الشرطة الذين تولوا أبعاد أهل الحلة من موقع السرقة حتى لا تختلط آثار أقدام اللصوص مع أهل الحي وتحرك أبو ضفيرة وهو ينظر إلى الأرض ويحمل عصاة غليظة يتكئ عليها فهو يمشي وكأنما أحد ساقيه أقصر من الآخر. وتقول الأساطير عن أبو ضفيرة أنه في

مرة من مرات سطوه قفز من حائط عالي فكسر ساقه والقى القبض عليه وأخذ إلى المستشفى ولكن الساق برأت وهي أقصر من الأخرى فصار أبو صفيرة أعرج.

بدأ أبو ضفيرة تحت موقع الشباك وصار يأشر بعصائه إلى مواقع متفرقة ويسير في الشارع ولا ينظر لأحد وصار رجال الشرطة يتابعونه من زقاق إلى آخر ثم توقف أبو ضغيرة وأشار إلى رئيس الشرطة ثم ركب الجميع (البوكس) وتركوا أهل الحلة في حيرة.

والذي حدث بعد ذلك والذي عرفه أهل الحلة أن أبا ضفيرة تعرف على أثر أقدام أحد اللصوص فهو خبير بهم جميعاً وكان واحد منهم وفعلاً دل الشرطة إلى سكن اللص الذي تعرف على أثر أقدامه في منطقة حي العرب وتم القبض على اللص ثم بضغط من الشرطة أرشد اللص إلى زملائه الذين سطوا على منزل عكاشة ووجدت المسروقات كلها في إحدى بيوت اللصوص وردتها الشرطة إلى عكاشة مع إكمال اجراءات محاكمة اللصوص والزج بهم في السجن.

ذلك الحادث اصبح من معالم تاريخ الحلة وصار الكبار يتحدثون عن اليوم الذي سطى فيه اللصوص على منزل عكاشة ويتحدث النساء عن أن زوجة عكاشة كانت امرأة حريصة تحتفظ بحليها عند والدتها في حي آخر فلم يتمكن اللصوص من سرقتها.

أما أولاد الحلة فأصبحوا يتمثلون بأبي ضفيرة ويحمل الواحد منهم عصاة ويتابع آثار زملاءه ويقول هذا اثر قدم فلان وهذا أثر قدم فلان وحتى عندما يلعبون يسمى بعضهم أبا ضفيرة والآخر صول الشرطة.

أما عكاشة بعد أن أسترد كل المسروقات من الشرطة أقام حفل عشاء (كرامة) في منزله ودعى كل أهل الحلة وجاء الخليفة المعتصم فقرأ المولد وقدمت (الفتة) وحلو القمردين والرز وقدم الشاي والقهوة وكان يوم فرح بالنسبة لأهل الحلة.

كما ذكر سابقاً فإن بعض أولاد الحلة قد تزوجوا من بنات الحلة ومن أشهر زيجات الحلة والذي ظل يتحدث عنه أهل الحلة ويقولون يوم عرس حسن أو تقول النسوة يوم عرس زينب.

المسافة ما بين منزل أهل حسن ومنزل أهل زينب لا تزيد عن مائة متر وربما أقل، وحسن وزينب أقرباء فهو أبن عمة والدها ولذلك انقسم الأهل إلى مجموعتين واحدة أهل العريس والأخرى أهل العروس بالرغم من أن المجموعتين شيء واحد. كذلك أهل الحلة انقسموا إلى مجموعتين مجموعة مع أهل العريس ومجموعة مع أهل العروس والحكم في ذلك القرب إلى منزل العريس أو العروس.

ومناسبة زواج حسن من زينب أعتبرت من المعالم الشهيرة في تاريخ الحلة لأن الأسرتين تعتبران ممن هم فوق الفقر أي ربما يكونا موسرين وبامكانهم إقامة عرس فيه شيء من البذخ. وأول مظاهر البذخ أن أهل الحلة سعدوا بأنهم مدعوون إلى حفلين للعشاء في يومين متتاليين، الأول عند أهل العريس والثاني عند أهل العروس وفي كل من الدعوات قدم العشاء الفاخر الذي بدأ بالشوربة ثم الضلع ثم المكرونة ثم نوعين من المحشي والكباب والكمونية ثم الطبائخ مثل البطاطس والبامية وبعد كل تلك تقدم الكنافة والحلو والخشاف. وفي الليلتين قام أولاد الحلة وامعاؤهم تكر من الأكل الدسم والجيد.

كان اليوم الأول هو يوم (الحنة) في ذلك اليوم ذهب العريس مع مجموعة من النساء وبعض الأصدقاء إلى منزل أهل العروس في الجانب الأيمن من الشارع وبعد استقبالهم قام العريس بوضع الحنة في كف العروس وزغردت النساء وغنت الحنانة والوزيرة ودفع العريس شيء من المال لأهل العروس.

أما اليوم الرئيسي والذي يسمى يوم الدخلة فكان اليوم التالي ليوم الحنة فبعد أن قام العريس بوضع الحنة على كف العروس وعاد إلى منزله

تمت عملية الحنة له وغنت مغنية بالغناء التقليدي المتوارث من أحقاب وجلس أصدقاء العريس حوله وكذلك نساء وبنات الحلة كلهم جلسوا في فناء الدار. وأثناء عملية وضع الحنة تقدم أصدقاء العريس وبدأوا في تقديم المال وتولى أحد أصدقاء العريس تسجيل المبالغ التي تدفع مع أسماء الدافعين وذلك هو العون أو المشاركة التي يقدمها أصدقاء العريس له.

في مساء ذلك اليوم تبدأ الاستعدادات للسيرة من منزل العريس ولبس العريس القميص والسروال وتلفح بثوب (السرتي) وهو ثوب من الحرير يستورد من الهند ويستعمل في لبس العريس في مناسبة الزواج ويستعمل لتغطية الميت عند أخذه إلى المقابر - مفارقات في التقاليد غريبة- تضاء الرتائن ساطعة الضوء وتخرج السيرة وبالرغم من أن منزل العريس لا يبعد عن منزل العروس بأكثر من مائة متر إلا أن السيرة لم تتجه مباشرة إلى منزل العروس فذلك لا يستغرق سوى خمس دقائق بل بدأت بوقفة أمام منزل العريس والسيارة تغنى، وأخرى تحمل لها الدلوكة وربما أُخريات يحملن الشتم وهو طبل آخر مثل الدلوكة ولكنه صغير الحجم ويحدث أصوات أقل من الدلوكة.

تحركت السيرة من منزل العريس واتجهت في الشارع الرئيسي متجهة شرقاً وأولاد الحي يسيرون حول العريس في خطوات بطيئة والسيارة تغني تعدد مناقب العريس وآبائه وأجداده وقد تتقدم إحدى قريبات العريس للرقص (بالرقبة) ويكثر (الهز) وهو هز اليد على العريس أشعاراً للفرح والمشاركة.

وفجأة يخلع أحد أصدقاء العريس الجلابية والقميص (ويركز) أمام العريس الذي يحمل سوط العنج ويعلق السيف على كتفه. يرتكز الصديق على عصاته بعد أن يهز على العريس وتقف السيرة، وعندما تتوقف السيرة ويقف الصديق أمام العريس يتقدم منه العريس ويهوي على كتفه وظهره بسوط العنج وأقل ما يحدث أن يهوي عليه ثلاثة ضربات بالسوط

يظهر اثرها فوراً على ظهر الصديق وقد تنزف الدم مباشرة ثم يقف الصديق ويهز أمام العريس وتصيح النساء بالزغاريد فإذا بصديق آخر يتقدم ويقف نصف عاري أمام العريس.

في مثل هذه المناسبة قد يتجمع عدد من شباب الحلال المجاورة ويقدمون للعريس لنيل نصيبهم من (البطان) وهو عملية الضرب بالسوط وقد يتواجه أثنان من غير العريس كل يتحمل ضربات من سوط صاحبه اظهاراً للرجولة والشجاعة والقوة.

سارت السيرة في اتجاه بعيد عن منزل العروس والكل في سرور وابتهاج وغناء السيارة ووفقات البطان وتدور السيرة حول مربوع أو أثنين من الحلة وبعد ما يقرب من ساعة تصل السيرة إلى منزل العروس الذي لم يكن في الواقع بعيداً عن منزل العريس بأكثر من خمس دقائق.

عند الوقوف أمام منزل العروس تغني السيارة: (أم العروس جينا ليك جبنا المتمن لي نضم الشبيكي) ويعني ذلك أننا حضرنا ومعنا الذهب لتجهيز حلي العروس وأمام منزل العروس (يهز) أصدقاء العريس و(يزم) بعضهم (والزم) هو إحداث أصوات من الصدر تشبه أزير الأسد وتطول الوقفة إلى أن تخرج أم العروس ونساء العروس لاستقبال السيرة ثم يدخل الجميع إلى منزل العروس.

يجلس الرجال في مكان الرجال والنساء في مكان النساء ويتم إكرام الجميع وتبدأ ليلة العرس بالغناء والرقص من فتيات الحلة من بنات العريس وبنات العروس.

ويظل الجميع جلوساً في انتظار ظهور العروس لأن الخطوة التالية هي خطوة (قطع الرحط). وجرت العادة أن يتلكأ أهل العروس في إخراج العروس ويظل الجميع في الانتظار وفي بعض الأحيان يستمر الانتظار حتى (البياح) وهو بداية الفجر وكثيراً ما يقطع الرحط في الساعة الرابعة صباحاً في حين أن السيرة قد وصلت إلى منزل العروس قبل العاشرة مساء ولكن

في حالة زواج حسن من زينب كان أهل العروس أكثر لطفاً، فقد جهزت الساحة في وسط الحوش في الساعة الواحدة صباحاً وفرشت السباتة وفوقها البرش الملون وبعد بعض الوقت بدأت حركة من الداخل وسيرة صغيرة تقود العروس وهي مغطى بفركة القرمصيص إلى الساحة عندها يهب الجميع للحصول على موضع يمكنهم من روية عملية قطع الرحط ومشاهدة رقص العروس.

قبل ذلك اليوم بفترة من الزمن تبدأ في منزل العروس استعدادات كثيرة من أهمها بتعليم العروس (الرقيص) فرقصة العروس في ذلك اليوم أي يوم قطع الرحط يعتبر يوماً مشهوداً في تاريخ العروس وتاريخ الحلة ويشار إليه بعد مضي سنين وتتحدث النساء عن وقفة العروس (الفلانية) ورقصتها الرائعة.

من أجل ذلك تعين امرأة متمرسة في تعليم العروس وهي فعلاً تكون محترفة وهي تحضر إلى منزل العروس في بعض الأمسيات وتجتمع بعض بنات الحلة صديقات العروس ويبدأ تعليم العروس أنواع الرقصات التي ستقدمها في ذلك اليوم وتبدأ المعلمة ربما بأن ترقص هي أو ترقص بعض صديقات العروس اللاتي مررن بتلك التجربة وتم زواجهن ويستمر تعليم العروس (الرقيص) إلى أن يأتي وقت العرس كما تجري بعض الأعمال الغذائية إذا كانت العروس (ضعيفة) أولاً تكتنز بعض اللحم في بعض المواضع فيعمل لها نظام غذاء خاص كل ذلك حتى تظهر العروس في يوم الدخلة وعند وقفة الرقيص وقطع الرحط تظهر العروس في أبهى ما يمكن أن تظهر به.

وفي ذلك الزمان الذي تزوج فيه حسن من زينب كانت الأمهات يعرضن البنات إلى ما يسمى (بدق الشلوفة) وهو احضار امرأة متخصصة في استعمال الوشم إلى تغيير لون الشفة السفلى باللون الأخضر الذي يستعمل في الوشم وتلك عادة جاءت إلى السودان من مصر وربما من وقت بعيد ولكنها الآن أندثرت وانتهت مع عادات سيئة أخرى.

أما عملية قطع الرحط ورقص العروس فتبدأ بأن يزيل حسن الذي يقف بالقرب من العروس في السباتة عنها فركة القرمصيص - وهي من الحرير الأحمر مثل ثوب السرتي - وتكون العروس واقفة ترتدي الفستان وعلى صدرها وعنقها الذهب بأنواعه المختلفة وعلى معصميها وأصابعها، تقف العروس وهي تغطى وجهها بكفيها فيزيل حسن اليدين والذراعين إلى أسفل فتكون العروس مغمضة العينين وتبدأ المغنية في غناء الرقصة مع أنغام الدلوكة ويمسك العريس حسن بالحجاب أو العقد الذي حول عنق زينب العروس، وتبدأ في رقصة العروس والكل ينظر إليها وهي تتحرك مغمضة العينين وحسن يتحرك معها إلى الخلف. وفجأة تتوقف نقرات الدلوكة والصفقة وتتهاوى العروس إلى أسفل وتترك حسن في حيرة ثم ويضج الجميع بالضحك على مفاجأة العريس.

تكرر العملية عدة مرات وبأنغام مختلفة وحركات مختلفة حسب اتقان العروس لفن الرقص وحسن تعليم العلامة لها ويظل الجميع في صياح وضحك من جانب أولاد الحلة ومن جانب بنات الحلة ممن هم مع العريس أو العروس.

تلك الليلة كانت بداية عرس حسن من زينب، والذي صار أحد معالم الحلة التاريخية وفي الصباح وهو ما يسمى يوم الصبحية قد يقضى بعض أصدقاء حسن الليلة معه في منزل العروس، أو يعودون في الصباح ويقدم الفطور من عصيدة متنوعة الملاح والشعيرية والسكسكانية والفطير ثم الشواء، وقبل منتصف النهار تبدأ رقصات العروس التي قد تحضر لمشاهدتها نساء من خارج الحلة وحتى من خارج الحلال المجاورة وخاصة وأن أسرة حسن وأسرة زينب وكلاهما ينتمون في الواقع إلى أسرة واحدة، تلك الأسرة بعض أقاربها يسكنون الخرطوم أو الحلفاية، كل هؤلاء يصلون إلى منزل العروس لمشاهدة العروس وهي ترقص وتقدم لهم الموائد ويكرمون.

وفي المساء تبدأ ليالي الغناء ويجلس الرجال من جانب والنساء بالجانب الآخر الرجال على عناقريب مرصوصة جنباً إلى جنب في شكل صلعي مربع وتجلس النساء أو على الأصح الفتيات إلى الجانب الآخر على سباتة أو سجاد وبعضهن تغطي وجهها بالثوب في (بليمة) لا تظهر منها سوى العينان الكحيلتان.

واستمرت ليالي زواج حسن من زينب أسبوعين، كلها غناء ورقص وفرح وابتهاج وظلت كل الحلة مبتّهجة وسعيدة بزواج أحد أولاد الحلة من إحدى بنات الحلة واصبح زواج حسن من زينب من المناسبات التي يؤرخ بها ويقولون أن فلانة وضعت ولدها في أثناء زواج حسن من زينب أو أن فلان خطب فلانة أثناء زواج حسن من زينب.

ومن الأحداث التي يؤرخ بها وفاة الشيخ الماحي أحد شيوخ الحلة ورجالها وله تاريخ طويل جاء إلى السودان مع الفتح أحد رجال الهجانة وخبراء الصحراء وكون له أسرة كبيرة من الأبناء والبنات والأحفاد وفجأة ومع خبر وفاته وهو جالس في أحد (برندات) سوق الجلود في أم درمان، وقع خبر وفاته على الحلة وقع الصاعقة ولولت النساء وانتحب الرجال وصرخ الأطفال وكانت وفاته أول حدث مروع كبير منذ انشاء الحلة.

جاء رجال من السوق يحملون الجسمان وبعد أن جهزت الجنازة وقد خرج أولاد الحلة إلى المقابر لحفر القبر خرجت الجنازة في موكب كبير فقد كان للرجل صلاة كبيرة في كل أم درمان وكان المؤذن الرئيسي في مسجد أم درمان الكبير، وكان له صوت رخيم وعالي يسمع معظم أم درمان في ذلك الزمان دون استعمال مكبرات الصوت فقد كان المؤذن يتسلق المئذنة إلى أعلاها وينادي بالأذان.

يبدأ الأذان الأول للفجر قبل بذوق الفجر الصادق وكان شيخ الماحي يعقب أذانه بالصلاة على المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم ويقيم الصلاة وكذلك الأذان على الطريقة المصرية الجميلة ويؤدي الأوقات

الخمسة في الجامع الكبير وله دعاء مشهور بعد انتهاء الصلاة حفظه منـــه أعداد كبيرة من أهل أم درمان المعجبين به.

حمل الرجال (العنقريب) متوجهين إلى المقابر سائرين بالأرجل. ففي ذلك الزمان كان الذهاب إلى المقابر سيراً على الأقدام ويتناوب شباب الحلة حمل (العنقريب) وكان الناس في الطريق كلما مرَّ عليهم العنقريب يشاركون في الحمل فيقول الشخص لمن يحمل العنقريب (صلي على النبي) فيـصلي الشخص على الرسول ويسلم ركن العنقريب إلى المتطـوع الباحـث علـى الأجر.

عند وصول النعش إلى أول سوق الحدادين، يخـرج الحـدادون كـل يحمل العنقريب لعدة خطوات ثم يسلمه إلى آخر إلى أن يخرج العنقريب من منطقة سوق الحدادين، ويدخل سوق العناقريب وهب هؤلاء كذلك للمشاركة وهكذا استمر الناس سائرين وبعض الناس كانوا يواصـلون الـسير حتـى المقابر.

وضع العنقريب في فسحة من الأرض موجها نحو القبلـة وبعـد أن تأكد الناس من أن القبر تم تجهيزه أصطف الناس في صفوف طويلة خلـف العنقريب وصلى عليه أمام جامع أم درمان الشيخ عمر ثم حمل العنقريـب إلى موضع القبر ووري الجسمان الثرى وترحم الجميع على الشيخ الماحي وتحدث أحد العلماء الذين عرفوا الشيخ الماحي بعد الدفن، معـدداً مناقبـه وتاريخه وترحم عليه وقرأ الجميع الفاتحة على روحه وعاد النـاس إلـى المدينة.

في ذلك الزمان كان (الفراش) على الميت يتم فعلاً بفـرش البـروش والسجاد على الأرض وقد توضع بعض الحشايا ليجلس عليها الناس ولـم يكن هناك كراسي وعند العودة من المقابر تقدم شربات الكركدي أو الأبري إلى العائدين من المقابر فالطريق طويل وفي الغالب الأعم الحرارة عالية ثم يقدم الماء البارد والشاي.

في مثل حالة وفاة الشيخ الماحي كانت تستمر أيام الفراش إلى سبعة أيام أثناء ذلك لا توقد نار داخل منزل المتوفي بل يتولى أهل الحلة احضار صواني الأكل من البيوت الفقيرة جداً والفقير والتي أحسن من الفقر كل يأتي بما لديه من أكل في وقت الأفطار وفي وقت الغداء وكذلك في وقت العشاء وفي الصباح كل يحضر الشاي المخلوط باللبن والسكر كل حسب ما عنده ولا عيب من يحضر كفتيرة كبيرة أو يحضر براداً صغيراً، فروح المشاركة هي الأساس ومشاركة أهل الحلة هي العنصر الأساسي في تخفيف المصاب وكثيراً ما يبقى معظم أهل الحلة طيلة ايام الفراش ولا يذهبوا إلى أعمالهم وخاصة في الثلاثة أيام الأولى.

وفي الصباح الباكر من اليوم الثالث للوفاة جاءوا ببكرة كبيرة من سوق الجمال في أم درمان وذبحت البكرة أمام منزل الشيخ الماحي وجاء معها الجزارون. ذبحت البكرة متجهة إلى القبلة وتم ربط العقالات على سيقانها وأولاد الحلة الصغار والكبار يقفون على قرب ليشاهدوا لأول مرة كيف تذبح الناقة فذبح الخروف أو التور معروف لديهم بأن يتم أرقاده على جانبه الأيسر موجهاً إلى القبلة ويتم ذبحه أما الناقة فلا يتم أرقادها بل تظل جالسة ويربط الرأس بحبل متين ثم يدار الرأس إلى جهة اليسار ويمسك أكثر من شخص بالحبل ويشد ويأتي الجزار وهو يحمل سكيناً حادة وكبيرة وبسرعة وقوة يغرس السكين في نهاية رقبة الناقة ويحركها يمنياً وشمالاً وينهدر الدم عزيراً إلى الأمام والناقة ترفس وتحاول الفكاك وسريعاً ما يسيل دمها وتهدأ تدريجياً ويتم فصل الرقبة بأكملها عن الجسد ويبدأ سلخ الناقة من أعلى إلى الأطراف إلى أن يفرش الجلد تحتها ثم يبدأ الجزارون في تقطيع أوصالها.

عملية ذبح الناقة في اليوم الثالث لوفاة الشيخ الماحي لا يمكن لأولاد الحلة نسيانها ولأول مرة يعرف أولاد الحلة كيف تم (عقر) ناقة سيدنا صالح بواسطة ثمود الأمر الذي أغضب الله عليهم وقضى عليهم.

وبعد أن تم تقطيع اللحم في (طشاتة) عديدة حضر عشرات من المساكين من فريق العماية ومن فريق العرب ومن كل أجزاء أم درمان ووزع عليهم اللحم تقرباً إلى الله وترحماً على روح الشيخ الماحي.

وفي اليوم الخامس لوفاة الشيخ الماحي ذبح تور وفي اليوم السابع ذبح كبشان وكان ذلك أخر أيام المأتم الرسمية سبعة أيام عاشت الحلة في حزن شديد.

ومن الظواهر التي انتهت في الوقت الحاضر أنه عندما وصل خبر الوفاة صاحت النساء بما يسمى (التكلي) وهو البكاء على الميت بصوت عالي وكانت النساء يكلن التراب على رؤسهن وكذلك الرماد وهن يصحن وعند حمل الجسمان تحاول بعض النساء متابعة الجنازة فيردهن الرجال.

ومن اليوم التالي للوفاة تغير حال نساء الأسرة فخلعن كل الملابس الملونة والجميلة وجاءوا لهن بنوع ثقيل صنع من نسج القطن الثقيل يسمى (القنجة) وفي شكل شريحة عرضها حوالي نصف ياردة وتخيط أربع شرائح مع بعضها البعض لتكون ثوب الحداد عند المرأة ويسمى التور (أب أربعة فتق) أي أربع شرائح بدل الثوب العادي المكون من فتقتين في ذلك الزمان.

وتخلع النساء المراكيب الجميلة ويستعملن (الشقيانة)، وهي لبس من الجلد يستعمله العربان غير المدبوغ وكل ذلك تفعله زوجة المتوفي وبناته وأخواته وكل قريباته وقد تظل النساء في هذه الحالة الصعبة إلى عام كامل وتوقف النساء كل مظاهر التجميل كالحنة والمشاط الدقيق للشعر واستعمال العطور كل ذلك حزناً على المتوفي وفي أثناء ذلك العام لا تقام الأعراس ولا الاحتفالات بالمناسبة السعيدة مثل السماية بعد الوضوع أو الختان وأن حدثت فتكون دون أفراح.

بعد وفاة الشيخ الماحي في الحلة تواصلت الأحزان وكأنها مخططة فقد عاجلت المنية عدداً من أبناء عمومته، وواصلت المراسم نفس الطريقة

التي سارت بها أحزان الشيخ الماحي وواصلت النسوة نفس لبس (أب أربعة فتق) وشبط الشقيانة وكأنما حلت على الحلة كارثة لا طبول ولا زغاريد ولا أغاني.

ونسى أطفال الحلة مظاهر الفرح إلا ما يمارسونه في ألعابهم العديدة بالنهار أو المساء وخيمت على الحلة كآبه متواصلة.

ولله سبحانه وتعالى في خلقه شئون فهناك البلسم الرباني لجميع الاحزان هو بلسم ودواء النسيان وتدريجياً بدأ النسيان يهبط على أهل الحلة وكبر بعض أولاد الحلة وأرادوا الزواج وكبرت بعض بنات الحلة وجاءهن الأزواج وصارت الحبوبات يتشوقن لرؤية أطفال البنات والأولاد ثم جاء التغير الحضاري واصبحت مظاهر الحزن القاسية والكئيبة من لبس (أب أربعة فتق) ولبس (الشقيانة) مظاهر لا لزوم لها فهي ظواهر وأن الحزن في القلوب لا في المظهر.

كما أن للعلم والمعرفة أثر كبير في تغيير سلوك الناس وبدأت الحياة تتغير في الحلة وأقلعت النساء من (التكلي) عند سماع أخبار الموت وزجر الرجال النساء عن ذلك وبدأت أيام المأتم تتقلص من سبعة أيام إلى خمسة ومنها إلى ثلاثة وتوقف ذبح البكرة وما عاد الفقراء يحضرون من كل أركان المدينة إلى بيوت المأتم.

ومن الأيام التي لا تنسى في الحلة يوم سقطت (الرحمة) في المستراح، الرحمة هذه امرأة ضخمة سوداء من نساء الحلة معروفة بوزنها الثقيل أما المستراح فهو المكان الذي تقضى فيه الحاجة وفي كل شعوب العالم له أسماء مختلفة فهو في ذلك الزمان يسمى المستراح وهي مشتقة من مكان الراحة وفي بلاد أخرى يسمى الأدب خانة أو بيت الأدب وله أسماء متعددة في كل بلد.

المهم هو أن المستراح في ذلك الوقت كان عبارة عن مكان في ركن المنزل تحفر فيه حفرة عميقة وتغطى بالحطب والجريد والشكاب مثل أسقف

المنازل وتترك فتحة أو فتحتين في ذلك السقف لـيجلس الـشخص عليهـا لقضاء حاجته.

وعادة ما يكون المستراح دون سقف وقد يكون له في بعض المنازل سقف وتغطى أرضه بالأسمنت وينظم شكل الفتحات ويرسم مكـان للأقـدام ولكن في ذلك المستراح الذي سقطت فيه (الرحمة) لم يكن للمستراح سقف ولا أرض بالأسمنت وكان المنزل قديماً والمستراح قديماً.

دخلت (الرحمة) إلى المستراح وهي تحمل كوز الماء الذي يـستعمل في الاغتسال وجلست تقضي حاجتها ولكنها بعد قليل بدأت تـسمع طقطقـة الخشب من تحتها ثم بدأ السقف ينهار بها وعندما شعرت (الرحمة) بأنهـا تهوي إلى أسفل بدأت في الصراخ وسمعها أهل البيت فهبوا جميعـاً إلـى المستراح وعندما وصلوا إليه كانت (الرحمة) قد نزلت إلـى القـاع وهـي تصرخ وتولول ووقف الجميع حائرين!!.

الذي حدث أن آفة (الأرضة) قد وصلت إلـى الخـشب فـي سـقف المستراح وعملت فيه إلى أن بدأ في التفكـك ومـع وزن الرحمـة أنهـار الخشب وسقطت الرحمة داخل المستراح وهي تولول وتصيح.

الرجل الوحيد المعروف في كل أم درمان أنه بامكانـه النـزول إلـى المستراحات أسمه خوجلي. خوجلي هذا رجل طويل القامة ويعمل مع والدة في (الزبالة) فقد أعتاد منذ صغره على رائحة الزبالة وأشتهر خوجلي رغم جسمه النحيل بأنه يأكل أي كمية من الأكل تقدم له.

هرع أهل (الرحمة) إلى منزل خوجلي يستدعونه لإنقاذ الرحمة فقـد عرف بأنه يمكنه النزول إلى المستراحات لإنقاذ الحيوانات الـصغيرة التـي تسقط في المستراح مثل (العتان) وهي صغار الغنم.

نزل خوجلي إلى قاع المستراح وقاص في الماء وحمل معه حبلاً قوياً ربطه تحت أذرع الرحمة وترك أخره خارج المستراح وتمكـن عـدد مـن الرجال من رفع (الرحمة) خارج الحفرة ووجهـوا لهـا خرطـوش المـاء

ليغسلها غسلاً أولاً ثم خرج خوجلي وغسل أيضاً ثم تـوال أهـل الرحمـة غسلها بالماء والصابون ورش عليها العطور ولم تصب الرحمة باي كسور ولكن الرعب واثر الحبل تحت أذرعها أخذ وقتاً غير قصير للزوال وظل أهل الحلة يشيرون إلى اليوم الذي سقطت فيه (الرحمة) في المستراح والبعض يضحك والبعض يحزن على الرحمة المسكينة وبالطبع تبرع عدد من أهـل الحلة بالمال لخوجلي الذي أنقذ (الرحمة) من الغرق داخل المستراح.

والسؤال الذي يخطر على البال وبعد مرور السنين الطوال: هل كـان في الحلة (حب)؟ الأمر إذا نظرنا إليه بعين طبيعة الأشياء تجد أنه لابـد أن يكون هناك (حب) أولاد الحلة وبنات الحلة تربط بينهم روابط كثيرة معرفـة الأهل ومعرفة النشاة ومعرفة الأخلاق ومتابعة نمو البعض من الصغر كـل تلك الأشياء قد تكون المرحلة السابقة للحب أو تكون العناصر الداعية له.

وهنا تحدث التفرقة بين (الحب) في ذلك الزمان وبـين (الهيـام) أو (الهوى)، فحب أولاد الحلة لم يكن فيه حرمان بالصورة التي كانت مع بنات الحلال الأخرى وبالرغم من أن البنات بعد سن معينة يختفين داخل الأسوار إلا أن هناك مناسبات عديدة يشاهد فيها أولاد الحلة بنات الحلة.

الحب الذي في الحلة ليس (حب) أول نظرة كما يقول المغنى في ذلك الزمان: من أول نظرة هويتو وفي قلبي حويتو. قد يأتي حـب أول نظـرة وهو ما سماه الشاعر (هويتو) فذلك هو الهوى وأول نظرة قد تحـدث فـي الغالب في بيت أو حفل زواج أو في الطريق العام أو في المستشفى أو فـي السوق. أما حب أولاد الحلة فعادةً ما يبدأ معهم وهم صـغار وينمـو كمـا ينمون ولكن لا فيه تصريح ولا فيه حديث ولا فيه لقـاء أو تـشوق للقـاء وينتهي الأمر في الغالب الأعم بمثل زواج حسن من زينب.

وقد يحدث أن تكون البنت الواحدة محل نظر لأكثر من ولد من أولاد الحلة وقد يعرف الولدان ذلك وقد لا يعرفان الأمر الذي قد ينتهي في أخـره بأن يسبق أحدهما الآخر بطلب الزواج وقد يتقدم الاثنـان ويبقـى الخيـار

مفتوحاً لأهل العروس وقد يرضى من لم يوفق بأن ذلك قسمة ونصيب وقد تحدث أحداث مأساوية أو موسفة أو محزنة.

ومن الحالات التي عرفت في الحلة أن أحدى بنات الحلة كانت محل نظر ابن عمها وأبن خالتها والأمر لم يكن مفاجأة بل كان معروفاً لكل الأسرة ومنذ فترة أي منذ أن كانت البنت صغيرة ولم تصل إلى سن الزواج.

وأراد الله أن يتقدم أبن الخالة طالباً الزواج من بنت خالته ولم يكن هناك أي سبب للرفض وكان ابن الخالة كفؤاً من كل الوجوه وعندما شاع الخبر أصيب أبن العم بصدمة فقد كان يعتقد أنه هو الأولى أولاً لأنه أبن العم ويعتقد أن أبن العم مقدم على أبن الخالة وأنه أحد أولاد الحلة والآخر في حلة أخرى.

الذي حدث أن خرج أبن العم من الحلة وسافر إلى مكان بعيد في السودان وأستقر فيه وبدأ له عملاً ناجحاً وتزوج في ذلك المكان ورزق الذرية وبقى هناك، ولم يعد حتى مرت السنين الطوال وعندما توفى والده أجمع أهله في الأسرة على دعوته للعودة فعاد.

والبلسم الشافي الذي وهبه الله للإنسان هو النسيان ثم التسامح والإيمان وبمرور الزمن والرضى بالقسمة، وأن ما حدث من إراده الله كل تلك الأشياء المحنة والمودة المغروسة في الأسرة كل ذلك أعاد المياه إلى مجاريها وتزوج أحد أولاده من بنت أخيه وهكذا عاد ارتباط الأسرة كما كان.

هذه واحدة من أحداث عديدة في الحلة كلها مرتبطة بالزواج المخطط من الأهل وما يقسمه الله. فقد حدث أن والدة من نساء الحلة الكبار واللاتى لهن مركزاً خاصاً في الحلة وفي أسرتها كانت هذه الأم تخطط لتزويج ولديها الآخرين من بنات أخيها الأثنين وكان الأمر معروفاً لكل الأسرة ولكن لسبب غير معروف تزوج أحد الولدين بنت خالة زوجة أخيه جاءت إلى الحلة من مدينة بعيدة بسبب العلاج وأنتهى الأمر بأن خطبها الولد

وتزوجها. أما الأخ الثاني فقد عاف الزواج ولم يتزوج قط، أما بنتا الأخ فقد تم تزوجيهن إلى شخصين آخرين وهكذا يريد العبد ويريد الله ما يريد العبد قد لا يحدث أما ما يريده الله فلابد أن يحدث. كل ذلك يمكن أن نسميه (حب) أما الهوى والهيام والغرام فيحدث ما بين أولاد الحلة وبنات حلة أخرى قد تكون حلة مجاورة وقد تكون حلة من حلال أم درمان البعيدة وفي تلك الحالة يهاجر أولاد الحلة إلى الحلال البعيدة لحضور حفلات الزواج ويشاهدون بنات الحلال الأخرى وقد تتعدى مرحلة الاعجاب إلى مرحلة الهوى والهيام والغرام وفي تلك الحالة قد يجد البعض من أولاد الحلة من يكون رسول غرام بينه وبين الطرف الآخر هذا الرسول قد يكون أحد أصدقائه من الحلة الأخرى وقد تكون إحدى النساء المتخصصات في إدارة حفلات الزواج ولهن تسميات عدة مثل الوزيرة فهي الوحيدة التي يمكنها الاتصال أو إيصال رغبات الأولاد للبنات.

الحلة التي نتحدث عن أولادها وعنها تم تخطيطها في أول الثلاثينيات من القرن الماضي بمعنى أنها في عام ١٩٣٠ لم تكن موجودة وكان في مكانها (خلاء) فضاء به أشجار الشوك وبعضها كانت مقابراً في عهد المهدية لأنه عندما بدأ بعض من هم أحسن من الفقراء قليلاً في حفر أساسات منازلهم بعمق، لأن منازل الطين وهي الغالب الأعم من بيوت الحلة لم تكن تحتاج إلى أساس سوى عشرة سنت فقط، عندما بدأ الحفر في الأساسات لبيوت الطوب ظهرت العديد من المقابر القديمة والتي درست وانتهت وقامت فوقها الأعشاب.

عندما أزداد سكان أم درمان قليلاً رأى الحكام توسيع المدينة جنوباً وشمالاً وغرباً. وبدأ التوسع غرباً وسميت المنطقة الجديدة بفريق (برامبل) وهو مفتش مركز أم درمان في ذلك الوقت وكان مفتشاً شهيراً أولاً لبقائه في وظيفته لعدة سنوات قد تزيد عن عشر سنوات كما أنه كان يحب أم درمان ويهتم بتطورها وبسكانها وكان يعرف العديد من أعيانها ويزورهم في مواقعهم.

وفي التخطيط العمراني كان برامبل يهتم بـالتخطيط الـسكاني ولـذا عندما وزعت أراضي تلك المنطقة حرص (برامبل) أن يجعل كل الأسر التي كانت تتجاور في منطقة أم درمان الوسطى والتـي بـالقرب مـن مكاتـب بوستة أم درمان حرص أن يجعل كل الأسر متجاورة كما كانت في الموقـع الأول وحتى الأهل والأقرباء حرص بأن تكون منازلهم متجاورة.

كانت حدود أم درمان غرباً الشارع الممتد من بوستة أم درمان مـاراً بحي الشيخ دفع الله وأخر مباني في تلك المنطقة كانت مستشفى الأرسـالية الإنجليزية ونفس الشيء بالنسبة للجانب الآخر من شارع العرضة فقد كانت أخر المباني فيه قصران كبيـران لـسكن أطبـاء وممرضـات مستـشفى الارسالية.

وبعد تخطيط حي برامبل الذي يتكون من عدد من الحلال تبـدأ مـن منطقة سوق القش شمالاً وتمتد حتى شارع العرضة وتنتهي جنوباً بخـور الجمال وهو الخور الذي يحد أم درمان من الغرب أما حي العرضة الحـالي وما بعده من أم بدة وغيرها فلم يكن موجوداً وكانـت تلـك المنطقـة أمـا ميادين للعبة كرة الخيل أو مزارع صغيرة تزرع في الخريـف تحجـز لهـا الماء بتروس من التراب ومزارعي تلك المنطقة يرجع تاريخهم للفتيحـاب الذين يسكون ديم الفتيحاب جنوب أم درمان.

الحلة التي نتحدث عنها كانت جزءاً من فريق برامبل وكما ذكرنا فإن معظم سكانها أو كلهم من الفقراء جداً أو الفقراء أو من هـم أحـسن مـن الفقراء قليلاً وبالمقابل فإن المنطقة المقابلة لفريق برامبـل مـن الجانـب الجنوبي والتي وزعت أيضاً بعد فريق برامبـل وجنـوب مبـاني قـصور الارسالية أضيف البعض منها إلى حي العباسية القديم الذي يشمل ما يسمى بحي الأمراء وهو أحد أحياء المهدية القديمة ويسكنه أبناء العديد من أمراء المهدية. أما ما خطط جنوباً بعد ذلك فسمي (الرجال بانت) ولكـن أختـصر الاسم وسمي بانت. ونفس الاسم أطلق على الجزء الجنوبي من أم درمـان

الذي يقع بعد خور أبوعنجة حيث مدرسة المؤتمر والتي أقيمت في مكان مطار أم درمان القديم.

وقد يستغرب البعض إذا عرف أن أم درمان كان لها مطار في جنوبها ولكن تلك هي الحقيقة وكان مهبطاً لطائرات صغيرة يستعملها الحكام. تلك المنطقة الواقعة جنوب مدرسة المؤتمر سميت أيضاً (الرجال بانت) ثم أختصر الاسم إلى بانت.

نعود إلى الحلة وأولاد الحلة، من الوضع الاقتصادي والاجتماعي فقد عرفنا أن سكان الحلة يتكونون من بائع القش والطياني والدقاق والحداد والترزي والترابي وعسكري الشرطة والحلبي والكمساري ومعنى ذلك فإن الغالب الأعم أو الجميع كانوا أما من الفقراء جداً أو الفقراء أو من هم أحسن قليلاً من الفقراء.

والطابع العام – وتلك حكمة الله سبحانه وتعالى وعدله – فإن أبناء هؤلاء الفقراء جداً والفقراء حباهم الله بالذكاء وتحمل المسئولية والاحساس بالوضع الاجتماعي والاقتصادي لأسرهم ولذلك تقدموا في المدارس وواصلوا الاجتهاد والتحصيل، كما أن النظام الحكومي في ذلك الوقت كان يشجع على الدراسة ويهتم بأبناء الفقراء وخاصة الأذكياء منهم فكانت الدراسة بالمجان وشبه المجان وكانت تعطى مساعدات للتلاميذ المتفوقين من أبناء الفقراء بالإضافة للدراسة المجانية كانوا يمنحون مساعدات في الملبس والمصرفات الخاصة بالتلميذ.

وكان نتاج ذلك كله أن بدأ التغيير في الحلة وأولاً قبل كل شيء أولاد الحلة. تقدموا في المدارس وتنقلوا من مرحلة إلى مرحلة إلى أن وصلوا إلى الجامعة وكان الطالب الفقير في الجامعة يعطى منحة مالية شهرية بالأضافة إلى الإعاشة في الداخليات التي يجد فيها الطالب بالإضافة إلى الأكل الممتاز الذي لم يجده في بيت أهله الفقير بالإضافة إلى ذلك يتم غسل ملابسه ويعطى كل الكتب والمراجع بالمجان وتنظم للطلبة رحلات ترفيهية وتعريفية بعضها يمتد إلى مناطق السودان المختلفة.

ودار الزمان دورته وبدأت أشجار جديدة تنبت في الحلة وتحول الأبناء الذين كانوا يلعبون في التراب ويتبردون مرة في الأسبوع ويلبسون الملابس المتسخة ويأكلون كسرة الفتريتة وينامون في البروش وليس في اللحافات أو المراتب.

هذا النبت الجديد من أولاد الحلة جاء تدريجياً مع تقدم الأيام ولم يحس به أهل الحلة في بادي الأمر ولكن مع تقدم أولاد الحلة وتوظف أولهم ثم لحق به الثاني ثم الثالث والعاشر والخامس عشر وهكذا فإذا مع مرور السنين صارت الحلة التي بدأت بالطياني والنجار والحداد وكل أولئك بدأت ترى فيها الطبيب والمهندس والأستاذ والاقتصادي والعالم والفقيه وضابط الجيش وضابط الشرطة وضابط الجمارك.

وكما ذكرنا فإن الحلة بدأت في عام ١٩٣٠ وبعد مضي ربع قرن من الزمان أي في عام ١٩٥٥ وقبل الاستقلال بعام واحد كان في تلك الحلة خمسة من المهندسين وثلاثة من الأطباء وخمسة من ضباط الجيش وعدداً من المدرسين وعدد من الوظائف الأخرى التي يرتدي أصحابها البدل بدلاً من الجلاليب ويركبون السيارات بدلاً من الحمير والعجلات.

ظهرت في الحلة عدد من السيارات أما تقف في أزقتها أو في جراجات منازلها التي تغير بناؤها وشق شارع الاسفلت الحلة وأصبح الجيل الجديد من أولاد الحلة بدلاً من اللعب في الشوارع وأزقة الحلة أصبحوا يلعبون في الميادين التي أعدت لذلك اللعب وأختفت بعض الألعاب التي كان يمارسها أولاد الحلة في الماضي وظهرت العاب ومهارات ووسائل جديدة.

والأمر لم يقتصر على التطور بوسائل التعليم فقد حدث تطور اجتماعي واقتصادي وأصبح أبن التشاش تاجراً كبيراً وآخر أصبح صائغاً كبيراً وأبن الجزار أصبح مصدراً أما للبهائم أو اللحوم.

هذا الأمر الذي نتحدث عنه لم يكن قاصراً على الحلة التي نتحدث عنها ولا عن أولاد الحلة التي نتحدث عنها بل أمتد إلى كل حلال أم درمان وهكذا تطورت أم درمان بأبنائها الذين كافحوا واجتهدوا.

لم يقتصر دور التطور في أم درمان على أولاد الحلة بل أمتد إلى بنات الحلة وبالرغم من أنه كان متأخراً قليلاً عن أولاد الحلة إلا أن ذلك. كان بسبب التاخر في دخول بنات الحلة في المدارس وتاخر فتح مدارس البنات وخاصة التعليم الأوسط ثم الثانوي وبالرغم من ذلك فقد دخلت بنات الحلة إلى الجامعة قبل عام ١٩٥٠.

بدأت مشاركة بنات الحلة في التطور بامتهان التدريس ثم تطور الأمر إلى المهن الأخرى وروعة هذا الأمر كله بالنسبة لأولاد الحلة وبنات الحلة أن التطور كان بطريقة منظمة ومبرمجة وبهدوء ومعرفة وليس كثورة فالتطور الثوري بالرغم من سرعته قد يتسبب في صدمات وضحايا، أما ما حدث في تطور أولاد وبنات الحلة، فقد كان مدروساً ومنظماً بالرغم من النقد الذي كان يقدم للمستعمر وأنه بطئ ولكنه في الواقع أثبت بمرور الزمن أنه كان أكثر حكمة ولم يكن له ضحايا أو خسائر وأن المجتمع القديم قبل التغيير في جرعات هادئة مكنت الجميع من تقبل الأمر على اعتبار أنه واقع عالمي.

ومن روائع ذلك التطور وبالرغم من أن العقل المدبر له أساساً كان المستعمر إلا أنه ظل المجتمع عموماً يحتفظ بثوابت وقيم أخلاقية لم يحد عنها لا في المأكل ولا في الملبس ولا في المظهر العام وظل الطابع العام للسوداني أو السودانية ذا مظهر عالمي معروف نال احترام وتعزيز المجتمع العالمي وظل السوداني والسودانية أشخاصاً معروفين في مظهرهم وسلوكهم وقيمهم وأصبح السودان موضع احترام عالمي.

ومن نتاج ذلك التطور المنظم أن بداية العمل السياسي كان مبعثه النهضة الواعية للتعليم والثقافة والتحضر ولذا كانت بداية العمل السياسي قائمة على احترام الرأي الآخر وأن إختلاف الرأي لا يفسد للود قضية وكانت حصيلة كل ذلك والذي بدأ من الحلة وأولاد الحلة أن وصلنا وبقيادة أم درمان وأهل أم درمان وأولاد أم درمان أن وصلنا إلى أنظف استقلال تناله دولة من دول العالم الثالث وبأقل الخسائر وأقل التضحيات. وكان ذلك الأمر هذا الذي أوصلنا إلى يوم ١/١/١٩٥٦.

(٦)

لم تكن الحلة خالية من الخراف السوداء في القطيع فبالرغم من أن الغالبية من أولاد الحلة شقوا طريقهم في الحياة وعمدوا إلى الارتفاع بأهلهم وعوائلهم وتصدروا التلاميذ والطلبة في المدارس إلا أن هناك من عمل الشيطان على إفساده ثم أراد الله أن يصلح أعواجه ويوفقه.

من هؤلاء (علي) الذي كره الخلوة لأن شيخ الخلوة كان قاسياً في معاملته وكثيراً ما يحبسه في (الزنزانة) وهي عبارة عن قفص صغير يدخل فيه الولد ليبقى ساعات في وضع غير مريح وكثيراً ما يسبق ذلك أو يعقبه الرفع بالرفاعة والتي تسمى (أم سعد الله) ولذلك كره (علي) الخلوة وصار يغيب عنها ولكنه لا يبقى في البيت بل يحوم حول الحلال الأخرى ويختلط باناس في مثل حالته.

كبر علي واحتار أهله في أمره أدخل المدرسة الأولية ولكنه لم يفلح تعلم الكتابة والقراءة بعض الشيء ولكنه اعتاد على اللعب والغياب من المدرسة والتسكع في الأسواق.

ثم حدث أن دخل على في أحد بيوت الجيران – وأولاد الحلة كلهم يعتبرون أسرة واحدة ولا يحجر عليهم بيوت الجيران ولكن علي وجد قميصاً جديداً في إحدى الحجرات فأخذه وخرج به.

من تلك الحادثة والتي أظهرت لعلي بأنه يمكنه أن يكسب المال من السرقة، من تلك الحادثة أصبح علي سارقاً. في أول الأمر لم يفطن له أهل الحلة ولكن عندما بدأت تختفي بعض الأشياء من المنازل وخاصة الثمين منها بدأ أهل الحي مراقبة من يدخلون إلى البيوت في أوقات غير المناسبة وأخيراً تمكن أهل الحي من معرفة السارق.

ثارت المشكلة بأن (علي) من أولاد الحلة وأن معظم من يسرق منهم قد يكون من أقربائه أو من الجيران الذين وصلت علاقتهم بأهله إلى مرتبة قريبة من الأهل.

حاول أهل علي نصحه في أول الأمر ثم زجره وصار فعلاً الخـــروف الأسود في القطيع فقد كان أخوانه من الموفقين في الدراسة أو في العمل.

وذات يوم القى القبض على (علي) وهو يحاول ســـرقة راديـــو مـــن بيوت الحلة المجاورة وفتح بلاغ في البوليس وحقق معـــه إلا أن أصـــحاب البيت والراديو تنازلوا عن القضية بعد أن عرفوا أهل على وصلتهم بهم.

كانت حادثة سرقة الراديو السبب الذي جعل أسرة (علـــي) تمـــارس الضغط عليه لمغادرة الحلة وحتى المدينة. خرج علي من أم درمان وتوجه إلى جهة بعيدة حيث لا يعرفه أحد، وعملية الطرد والغضب الذي أصاب أهل علي وأسرته ربما كان السبب في أن يفكر علي في تغيير مساره واشـــتغل في عمل متواضع في تلك المدينة وغير سلوكه الشخصي وتنقل من عمـــل إلى عمل ثم عمل فراشاً في مدرسة ثانوية في تلك المدينـــة وكـــسب ثقـــة الناظر والمدرسين وأظهر من الأمانة والجهد والتفاني في العمل مما رفـــع مركزه في المدرسة وبعد عدة سنوات كان (علي) صول المدرســـة يوقـــف الطابور في الصباح ويحركه إلى داخل الفصول ولبس زياً خاصاً قريباً مـــن أزياء الشرطة ولحظه أن علي عندما كان في الحلة كـــان مـــن أبـــرز أولاد الحلة في النشاط الرياضي ولعب الدافوري والألعاب الأخرى وبفـــضل ذلـــك أصبح علي يشرف على الرياضة في المدرسة ثـــم توســـعت ســـمعته فـــي المدينة وكسب احترام وثقة أهل المدينة.

تزوج علي من أهل تلك المدينة واعتبروه واحداً منهم ونسى علي أو كاد أن ينسى ماضيه السيئ ورزق بالأولاد والبنات وبعد ذلك عاد علي فـــي زيارة إلى الحلة في شكله ومركزه المحترم واستقبله زملاؤه القـــدامى أولاد الحلة أحسن استقبال كما استقبله أهله وجيرانه وعـــاد (علـــي) الحرامـــي

وحمدوا الله أن أنقذ علي الذي كانت الحلة تخشى أن يكون وصمة عارٍ في جبينها.

لم يكن (علي) الوحيد من أولاد الحلة الذين ضلوا طريقهم في أوله ثم هداهم الله وعادوا إلى الحلة بوجه آخر فهناك هارون.

هارون هذا كان من أسرة فقيرة جداً من أسر الحلة ولذا لم يتمكن من مواصلة تعليمه بعد المدرسة الأولية وكان والده يعمل في (قهوة) صغيرة من قهاوي سوق أم درمان في إحدى أزقة أم درمان. حاول والد هارون أخذه معه إلى القهوة ليعمل (جرسوناً) فيها ويشارك في نظافة القهوة وحراستها فهارون بالإضافة إلى نشاطه كان قوي الجسم أطول وأقوى من جميع أقرانه.

ذهب هارون مع والده في أول الأمر إلى القهوة الصغيرة وبدأ العمل (كجرسون) ونجح في ذلك ولكنه لاحظ في ركن من أركان القهوة بعض العمال يجلسون إلى لعب (الكتشينة) وليست للتسلية بل كممارسة للقمار. في أول الأمر لم يحفل هارون بهم بالرغم من أنه كان في الحلة وفي مناسبات مثل ختان زملاءه، كان هارون (حريفاً) في لعب (الكتشينة) (ويخرت) كل أولاد الحي ملاليمهم وتعاريفهم.

أستمر هارون لسنين مع والده في القهوة التي يعمل بها وكان عندما يخف الزبائن يقف ولا يجلس بالقرب من الطاولة التي يلعب فيها المغامرون ويشاهد كيف يمارس لعب القمار بطريقة تختلف عن لعب أولاد الحلة في بيوت (الطهور).

وجد والد هارون عملاً أكبر في قهوة كبيرة في ميدان البوستة فترك العمل في القهوة الصغيرة القائمة في إحدى أزقة السوق وأوصى صاحب القهوة بولده هارون ولو أن نشاط هارون وعمله لم يكن يحتاج إلى توصية من والده.

ظل هارون في كثير من أوقات الفراغ يقف حول طاولـــة المغـــامرين واستهوته عملية المغامرة وذات يوم ولم يكن هناك زبائن في القهوة جلس هارون مع شلة القمار وأمسك بالكتشينة وبدأ اللعب وبعـد سـاعتين كـان هارون قد أستولى على كل نقود المغامرين.

كان صاحب القهوة يراقب هارون منذ مدة ولم يزجره عندما جلـس مع المغامرين وعندما شاهده يجرد عتاة المغامرين من مالهم فكر في تغيير وظيفة هارون فقد كان هناك شاب آخر يعمل بوظيفة ما يـسمى (ركيـب). (الركيب) هو الذي يغامر نيابه عن صـاحب القهـوة ويكـسب أو يخـسر لصاحب القهوة ويتقاضى مرتباً من صاحب القهوة وبـالقطعِ فـأن مرتـب (الركيب) اضعاف مرتب (الجرسون) وخاصة إذا كان (حريفاً) يـأتي بـدخل إضافي لصاحب القهوة.

عندما تحول هارون من جرسون إلى ركيب في القهوة غضب والـده غضباً شديداً وزجره لكن هارون أستمر في ذلك العمل الذي يعتبر بالنـسبة لأبن وأهل الحلة وأقاربه عملاً مشيناً و(حرام) الأمر الذي أنتهى بوالـده أن قام بطرده من البيت.

أشتهر هارون في حلقات القمار في القهاوي وعرضت عليـه قهـوة كبيرة العمل معها وتحول هارون إلى القهوة الكبيرة ومارس لعـب القمـار وأتقنه إلى درجة كان يخشاه فيها كل المغامرون.

كبر هارون وتخطى الثلاثين من العمر وبعد عن الحلة وأولاد الحلـة ونادراً ما يلتقى بهم أما في السينما أو في أماكن عامة.

توفى والد هارون فجأة ووصله الخبر وهو جالس في طربيزة القمار وضع هارون أوراق اللعب ووقف والألم يعتصر قلبه وفجأة تـذكر والـده وأهله وتوجه إلى الحلة.

عندما وصل هارون إلى الحلة وجد أهل الحلة قاموا بكـل الواجبـات وأن أولاد الحلة ذهبوا إلى المقابر لتجهيز القبر ووقـف هـارون ينتحـب

وعندما تحرك (العنقريب) سقط هارون على جسمان والده وصار يصيح ويولول ويبكى فأدركه بعض أولاد الحلة وازاحوه من (العنقريب) وتبع هارون الجسمان إلى المقابر وبعد أن تم دفن والده أرتمى أيضاً على القبر وهو يبكي.

عاد المشيعون من المقابر وتركوا هارون متكئاً على قبر والده وهو يبكي بحرقة. جاء هارون إلى منزل والده في مساء ذلك اليوم وهو حزين باكي ودخل على والدته وأخواته وظل يبكي وبقى هارون في الفراش ولم يذهب إلى القهوة وبعد أن رفع الفراش لم يذهب هارون إلى القهوة ويبدوا أنه أتخذ قراراً ولكنه لم يتحدث لأحد ولم يتحدث معه أحد.

هارون في الواقع ليس لديه حرفة أو مهنة سوى عمله السابق كجرسون أو ركيب ولذلك صعب عليه أن يجد عملاً ولكنه كان مصراً في تغيير مسار حياته.

لهارون أبن عم يعمل موظفاً كبيراً في إحدى المصالح الحكومية. عطف أبن العم على هارون الذي ظل في البيت وفي الحلة حزيناً باكياً طوال الوقت فقرر أبن العم مساعدة هارون وفعلاً وجد له وظيفة كبير السعاة في الوزارة فمظهر هارون وجسمه القوي ووجهه الوسيم كل تلك الصفات كانت وسيلته في ممارسة الوظيفة الجديدة.

أقام هارون في الحلة وبدأ عمله الجديد بكل همة وأخلاص وحاول جاهداً أن ينسى الماضى والظروف التي أنحرفت به دون إدراك منه إلى ما وصل إليه وتدريجياً عادت الابتسامة إلى وجه هارون وصار يخالط أولاد الحلة زملاءه القدامى فأفسحوا له المجال وإعادوه إلى حظيرتهم دون لوم أو عتاب واعتبر هارون الابن الضال الذي عاد.

كان لهارون أبنة عم تعطف عليه منذ صغرها فواجهه يوماً أبن عمه الذي ساعده في الحصول على وظيفة كبير السعاة وقال له أنه يود أن يزوجه من أبنة عمه فلم يرد هارون لأنه كان يعتقد أن ماضيه الذي قضاه

في التيه والعبث قد يكون حائلاً في رفض أبنة عمه من الزواج منه ولكنه فوجئ بأن ابنة العم قد قبلت الزواج وفرحت الحلة كلها بهذه الواقعة وتم الزواج فعلاً في أحسن وأروع ما يمكن وشارك أهل الحلة رجالاً ونساء وشباباً في ذلك الزواج واسدل هارون ستاراً كثيفاً من النسيان على الماضي.

ومن طريف تلك الماساة التي أنتهت بالفرح والسعادة أن هارون أصبح من أكثر رجال الحلة شعبية لدى الجيل الجديد من أولاد الحلة فقد ظل هارون في الأمسيات وفي المناسبات يحكي لأولاد الحلة قصص حياة الليل والظلام ومغامرات الصعاليك في حواري أم درمان وقد أثبت هارون أن له خيالاً واسعاً فقد ظل يضيف لقصصه الكثير من الطرائف والفكاهات التي كانت تضحك وتسلي أولاد الحلة.

وهناك قلة من أولاد الحلة الذين انحرفوا وبدأوا بالذهاب إلى أنادي (جبرونة) (وأركويت) وغيرها وصاروا يشربون المريسة ثم تطور الأمر وبدأوا بشرب الخمر.

وكان حادث غرق تلك المجموعة التي جلست على شاطي النيل تدخن البنقو وفي أخر السطلة خيل إليهم أنهم بالامكان المشي على سطح النيل وكانت النتيجة أن غرق ثلاثة منهم أحزنوا كل الحلة. ومن ذلك كله يتضح أن أولاد الحلة التي نتحدث عنها وعنهم لم يكونوا يختلفون عن حلال أم درمان فقد تعرض أولاد الحلة لنفس الظروف التي تعرض لها أولاد أم درمان في الحلال الأخرى ولذا كان بأم درمان روائع إنتاجها من الناجحين وكذلك من الفاشلين وتلك هي أم درمان التي تمثل السودان وإذا تعمقنا في بعض ظروف أولئك الفاشلين يمكننا أن نصل إلى حالات رائعة من الذين تغيرت ظروفهم ونهضوا من كبواتهم وعادوا إلى أولاد الحلة.

هكذا كانت الحلة جمعت وحوت من كل أنواع البشر وهذه طبيعة الأشياء فأم درمان لم تكن يوماً وطن نوع واحد من البشر ولا قبيلة واحدة

من القبائل ولا صنفاً واحداً من الناس ولكنها أم درمان ولكنها الحلة التـــي ظلت الصورة المصغرة لأم درمان وتقسم أهل أم درمان على كـــل الحـــلال قسمة عادلة ومتساوية نظمها الله سبحانه وتعالى لتكون الشعلة التي ستظل تضئ السودان مهما طال الزمن.

* * *

(٧)

ودار الزمان دورته وتغير الحال غير الحال وتحول أولاد الحلة إلى جهات عديدة أرقى وأغلى وأروع من الحلة في مظهرها وبنائها وسكانها وشوارعها. ذهب أولاد الحلة إلى العمارات ثم إلى الرياض ثم إلى الطائف ثم إلى كافوري وقاردن ستي والمعمورة وعمر المختار، اسماء رائعة ومستوردة.

أقيمت المنازل الواسعة ذات الحدائق الغناء وركبت المكيفات وفرشت الحيشان خارج ميادين النجيلة بالبلاط والسراميك والموزايكو والرخام وبدلاً من (المستراح) أقيم موضع قضاء الحاجة داخل الحمامات فالمنازل الفخمة أما مرتبطة بمشروعِ المجاري للعاصمة أو أقيمت لها أبار ونظام صرف صحي خاص. وبدلاً من التكل القائم في طرف البيت أقيم المطبخ وحيطانه من الرخام أو بلاط الصيني وأنتهى عهد الازيار فالثلاجات والفريزرات حلت محل الزير ومحل المشلعيب والنملية.

كل هذه الروعة أقامها أبناء الطياني والحداد والنجار والترزي وكل أولاد الحلة وتبادل الناس الشعارات القديمة التي اندرست فأصبح الناس يقولون (العلم نور) و(من جد وجد) (والعلم يرفع بيتاً لا أساس له والجهل يهدم بيت العز والشرف) و(قاموا الصغار وأزالوا الغبار).

ولكن ماذا فعل الله بالحلة بعد سكن معظم أولادها القصور وركبوا السيارات الفخمة من مرسيدس وكريسيدا ولاندكروزر وبي أم دبليو وغيرها ماذا يا ترى حدث للحلة بعد أن رحل عنها معظم أولادها.

ولكن في الواقع إذا نظرنا إلى التطور السكاني للأسرة في الحلة نجد أن ليس كل أبناء الحلة ذهبوا إلى المناطق الفخمة والغالية التي ذكرناها بل

هناك من أولاد الحلة من توجهوا شمالاً إلى الثورة أولاً في حاراتها الأولى ثم الوسطية والذين جاءوا أو على الأصح خرجوا من الحلة لم يتمكنــوا إلا من السكن في حارات الثورة التي كادت أن تصل جبل كرري. ومــع ذلــك فهناك آخرون توجهوا غرباً إلى أم بدة فهي في الواقع أقرب إلى أم درمان من الثورة التي تفصل بينها وبين أم درمان مساحات المقابر.

سبب كل ذلك الانفجار السكاني الذي بدأ من أوائل القــرن الماضــي بسبب القضاء على الأوبئة والامراض الفتاكة وســوء التغذيــة و الجــوع وكذلك الحروب.

هذا التغيير السكاني والحضاري والاجتماعي الذي أصاب أولاد الحلة كانت وظلت له نتائج إيجابية وأخرى سلبية شأنه شأن كل تغييــر يــصيب البشر.

لم يعد أولاد الحلة يلعبون كرة الــشراب (الــدافوري) ولا (ســجك) و(البلي) ولم يعد أولاد الحلة يجلــسون أو يلعبــون حــول عمــود النــور الكهربائي في ركن من أركان الحلة ولم يكن أولاد الحلــة يخرجــون إلــى الخلاء لمطاردة الغباشي أو جمع الكدندار أو يذهبون إلى جبال المرخيات أو يأكلون (أم جغوغة) واصبح أولاد الحلة الجــدد لا يعرفــون مــا هــي (أم جغوغة).

والطريف والغريب في الأمر أن بيوت الحلة لم تكن واسعة كأتــساع بيوت العمارات أو الرياض أو الطائف ولكنها كانت تحتوي على أعداد أكثر من الأهل والضيوف ومن الزوار أما البيوت الجديدة فقد بدأت تتضايق مــن القادمين من الأرياف والاحتفاء بهم وأصبح سكان البيوت الفخمة يتمنــون أن يخرج الضيف بعد أن يشرب كوب الببسي في حين أن بيوت الحلة كانت تحلف على الضيف أن يقضي الليلة وأن صحن الملاح مــن الجيــران قــد يسعف أهل البيت إذا قل الموجود في التكل.

لقد أصبح الضيق ليس في البيوت ذات الحمامات المتعددة والغرف المتعددة والتكييف، أصبح الضيق في النفوس كل ذلك كان من السلبيات الجديدة التي أصابت الطفرة الاقتصادية والحضارية لأولاد الحلة.

ولكن ما هي الايجابيات التي أصابت أولاد الحلة والحلة بعد التغيير الذي حدث واصبح ابن الطياني طبيباً وابن النجار مهندساً. من أولى الايجابيات التي صاحبت ذلك التغيير أن تحققت أمنيات أو أحلام آباء الحلة كانت حتى وقت قريب مستحيلة ومن تلك الامنيات فقد حدث أن سافر في سنة واحدة سبعة من أسر الحلة إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج فقد آل أولاد الحلة على أنفسهم أن يحققوا لآبائهم وأمهاتهم تلك الأمنية والحلم العظيم الذي كانوا يتمنونه.

وصاحب ذلك التغيير تغيير وضع آباء الحلة فقد خلعوا الملابس القديمة ولبسوا المستورد من الجلاليب والعمم وحملوا العصي الجميلة ولبسوا العبايات ونظفت أياديهم وأظفارهم من أوساخ الطين والسجم والرماد.

ومن الايجابيات بالنسبة لآباء الحلة أنه وبعد أن تقدمت بهم السن وجدوا العناية الطبية والأكل الأكثر صحة ونظاماً ووجد بعضهم السفر إلى بلاد الله الواسعة وتوسعت مداركهم ونظرتهم للعالم والحياة وهذا ما يمكن أن يسمى التطور.

ولكن من المؤسف حقاً أن تغيرت الحلة، بعض البيوت أصبحت خالية فقد انتقل الأبناء والبنات إلى المناطق المختلفة وتدخل قانون الإرث فاضطرت بعض الأسر إلى بيع البيوت حتى يأخذ كل نصيبه الأمر الذي يتسبب في بعض الحالات في الجفوة إن لم يكن الخصام بسبب صعوبة اقتسام الإرث. وفي حال الحلة التي نتحدث عنها فقد أصاب أحد أبنائها الحظ وأثرى فأشترى عدداً من البيوت ولكنه للاسف تركها خالية دون سكن أو إيجار فسكنتها القطط والكلاب الضالة.

أما التغيير الكبير فقد حدث في أمرين الأول أنتهت قصة الجار القديم الذي أصبح مثل القريب أو أقرب منه ذلك الجار الذي يمكن أن تطلب منه صحن الملاح أو تقتسم معه لقمة العيش واصبح الجار الجديد في المناطق الجديدة ليس بينه وبين جاره ربما سوى تحية السلام إذا التقيا مصادفة أما التزاور الذي كان يومياً بين الناس فقد أنعدم تماماً.

الأمر الكبير الآخر أن البنات في السكن الجديد أصبحن أكثر جرأة وليس كبنات الحلة اللاتي كن يعملن ألف حساب لأولاد الحلة كما بدأت البنات يخرجن في وضح النهار واصبحت المرأة الجديدة ليست كتلك التي تتحشم وتحاول أن لا يتعرف عليها أحد فيقول عنها شاعر الغناء:

حاول يخفي نفسه   وهل يخفى القمرفي سماه

أبداً طبعاً لا   شفناه شفناه

فأصبحت "الشوفة" متوفرة وأكثر من متوفرة الأمر الذي هوى بالعشق والهيام وقيمة البنت صاحبة الخدر، كل تلك الرموز الرائعة بدأت تختفي ولم يعد هناك شعراء في النسيب والغزل وأصابت الغناء ضربة قاصمة فقد تاهت الكلمات الرائعة وحل محلها نوع من الصخب يصم الأذنين ولا يحرك الاحاسيس ولا العواطف وبدلاً من أن يظهر شعراء جدد في الأدب السوداني ظهرت شاعرات مبدعات مثل روضة الحاج.

وأقسى ما أصاب الحلة وأولاد الحلة الجدد أن أنتهت جلسات الحبوبات في المساء وأحاجي الحبوبات في المساء وفوازير الحبوبات في المساء.

لقد كانت أحاجي الحبوبات أروع وأقدم وسيلة لتنمية الخيال في نفوس أولاد وبنات الحلة وغرس قيم الحب والمودة والشجاعة والصبر والمصابرة.

لقد كانت أحاجي الحبوبات تنقل أولاد الحلة وبنات الحلة إلى عوالم بعيدة من الخيال وردية رائعة مثالية فيها عنصر المغامرة وعنصر

الشجاعة وعنصر الرجولة وحب البنات والتضحية في الوصول إليهن وتحمل الصعاب في ارضاهن والحصول على مودتهن.

وبعد مرور أكثر من نصف قرن من الزمان يتلفت أولاد الحلة القدامى إلى أولادهم فيجدونهم غارقين في متابعة ألعاب الفيديو على شاشة التلفزيون أو يشاهدون توم وجري أو يشاهدون دولاندك. أمور مسلية ولكنها خالية من الخيال القيم.

لقد أنتهى عهد الحبوبات، ويتساءل المرء أين ذهبت الحبوبات؟! نعم هناك أم الأم وأم الأب تقدمت بهن السن ولكن تغيرت المشاغل واصبح للحبوبات واجبات أخرى وأعمال أخرى ولم يعد أولاد الحلة وبنات الحلة يجتمعون حول الحبوبة ويطلبون مواصلة الحجوة التي بدأت أمس وأول أمس وأول أول أمس وقد قطع سلطان النوم مواصلة الحجوة فيأخذ الأولاد والبنات إلى مضاجعهم ويصبح الصباح ويمر اليوم وعندما يسدل المساء ستائره يتسارع أولاد وبنات الحلة إلى حبوبة ويتشاكسون في أمر واحد من أين تبدأ الحبوبة الحجوة من أولها ويمر الوقت فإذا أولاد الحلة وبنات الحلة يستولى عليه سلطان النوم ربما في نفس الموقع الذي حدث فيه ذلك في الأمسية السابقة.

والطريف في الأمر أن بعض أولاد الحلة تتواصل في مخليتهم أحداث الحجوة فتختلط رواية حبوبة وصوتها الرخيم الهادئ بالأحلام وإذا ولد الحلة يتصور نفسه أحد أبطال الحجوة ويحاول أن يشارك في الخوارق والمعجزات التي تحدث في الحجوة.

لقد سبق هانز كرستيان أندرس الكثير من مؤلفي قصص الأطفال الخيالية وهو من الدينمارك وطاف بالأطفال حول قصص الساحرات اللاتي يقمن بيوتاً من الحلوى والكعك لإغراء الأطفال ثم أكلهم وطاف بهم في أجواء بعيدة ورائعة حاول دزني صياغتها في أفلام سينمائية للأطفال وأصبحت قصة (سندرلا) والأمير والحذاء الطائر إحدى أقاصيص الأطفال

العالمية لكن كل ذلك لم يكن يصل إلى ما كانت تصل به أحاجي الحبوبات بأولاد الحلة من تربية ذاتية وخيال وقيم.

وقد تابع كامل كيلاني نفس أسلوب هانزكر سيتان اندرسن واخرج العديد من قصص الأطفال في كتيبات طريفة لكن التلفزيون قضى على كل ذلك الجهد وقد أصبح خيال أولاد الحلة قاصراً في نموه مع نمو أجسامهم ولذا لم يكونوا مثل آبائهم من أولاد الحلة الكبار الذين تشبعوا بروح الحبوبات وخيالهن وطريقتهن في سرد الأقاصيص والأحاجي.

كما أن الفوازير – وقد ذكرت بعضها في أول هذا الحديث – تلك الفوازير كانت بداية تنشيط الذهن في حل الألغاز وربط الكلمات للوصول إلى الحقائق. وهذه بعض الفوازير أو الألغاز التي حفظتها الذاكرة على مدى خمس وستين عاماً وقد ذكرناها من قبل.

–طاسة تمنطاسة في البحر غطاسة بطنا لولى وظهرا نحاسة (الرمانة).

–طويل ما بلحق الكعكول (الطريق)

–دخل القش وما قال كش (الظل)

–أزرق كته أب كريعيناً ستة (الخنفسان)

–إن شالو ما بنشال وكان خلو سكن الدار (الرماد)

تلك الفوازير كانت المنشط لإذهان أولاد الحلة الصغار ويحدث أن يحاول أولاد الحلة التنافس في الوصول إلى الاجابات الصحيحة.

أما الأحاجي الطويلة ففيها كثير من الروعة والخيال وتضيف الحبوبة إلى كل ذلك طريقة السرد مع نور الضوء الخافت الصادر من مصابيح الجاز فلم يكن هناك بإمكان كل الأسر الفقيرة جداً أو الفقيرة أن تدخل النور الكهربائي إلى منازلهم ولذا نجد أن من فوائد الضوء الخافت إضافة نوع من السحر كما أن الهدوء الشامل الذي كان يخيم على الحلة في المساء فلم تكن هناك سيارات في الطريق ولا أصوات مذياع أو تلفزيون كل تلك

العناصر كانت تتفاعل على إضافة الروعة على قصة الحجوة وتفسح الخيال لدى أولاد الحلة لإكمال الصور التي كانت ترويها الحبوبة وكانت الحبوبة في كل مرة تضيف من خيالها أشياء تزيد من روعة الحجوة منها ذكر الألوان الزاهية والأنوار الساطعة والأنغام الشجية.

ومن روائع الأحاجي التي كانت تشد أحاسيس أولاد الحلة وتجعلهم يجلسون مسحورين حول حبوبة لا يتحركون ولا يتحدثون وإذا حاول أحدهم التحدث أو مقاطعة حبوبة هجم عليه الآخرون واغلقوا فمه. من تلك الروائع حجوة المدينة الآمنة والغول والشاطر حسن.

وتقول الحجوة: أرويها بتصرف

بسم الله رب العالمين والصلاة والسلام على شفيع المسلمين. كان ما كان في عجائب الزمان مدينة آمنة سعيدة أهلها طيبين ورجالها صالحين ونساؤها مستورات وأولادها هادئين وبناتها جميلات. العيش فيها طيب والطقس فيها جميل لا حار ولا بارد ولها نهر عظيم ماؤها عذب يزرعون قصب السكر والفواكه والبطيخ والشمام والتفاح والبرتقال وكل لذيذ وطيب وحلال.

وفي يوم من الأيام وليلة من الليالي خرج على المدينة الآمنة (غول) من بئر قديمة مهجورة عميقة وخطف إحدى بنات المدينة فحزن أهل المدينة حزناً شديداً وتحول حالهم من السعادة إلى الشقاء ومن الفرح إلى البكاء ومن الطمأنينة إلى الخوف.

تغير حال المدينة وأصبح أهلها لا يعرفون ما يفعلون أجتمع الرجال وتشاوروا وأجتمع النساء وتباكوا وتجمع الأولاد واحتاروا وصارت المدينة كل ليلة تظل ساهرة خوفاً من عودة (الغول).

توقف الفرح وتوقف الغناء وتوقف الرقص وظلت أمهات البنات يخفين بناتهم داخل (القاطوع) والقاطوع هو حجرة داخل حجرة مظلمة تخفى فيه الأمهات الحلي والمجوهرات.

أثر الخوف والحزن على المدينة وتوقف الرجال من زراعة قصب السكر والنسيج وتوقف الأولاد من اللعب وتوفقت البنات من الغناء والرقص وأصاب المدينة كدر شديد وأصاب الناس الضعف والمرض.

وبعد عام كامل وفي نفس اليوم الذي كان في العام السابق خرج (الغول) من البئر المهجورة واختطف إحدى بنات المدينة وعاد وأختفى داخل البئر وولولت النساء وأحتار الآباء وجلسوا يتشاورون ماذا يفعلون ولكنهم لم يصلوا إلى أي حل فالكارثة أكبر مما يعرفون (الغول) شيء لا يدركون.

ومرَّ عام آخر والمدينة في حزن وخوف وترقب وفي نفس اليوم الذي ظهر فيه (الغول) في العامين السابقين ظهر الغول وحاول أن يتصدى له رجال المدينة ولكنه صاح فيهم صيحة مدوية سقط جميعهم من الرعب واختطف فتاة أخرى من فتيات المدينة وكانت تلك الفتاة هي فاطمة السمحة أجمل بنات المدينة لونها خمري وعيونها واسعة وشعرها أسود طويل وأسنانها بيضاء لامعة.

كان الشاطر حسن أبن عم فاطمة السمحة فأصابه حزن شديد وقرر في نفسه أن لا حياة له بعد فاطمة السمحة ويجب أن يواجه هذا الغول إما يقضي عليه أو يقضي عليه الغول.

أضمر حسن في نفسه خطة وقضى العام كله يسن سيفه حتى صار السيف يقطع الحديد والنحاس والصخر، وفي مساء اليوم الذي أعتاد فيه (الغول) الظهور من البئر طلب حسن من أولاد المدينة إنزاله داخل البئر وحمل سيفه معه وعمل لنفسه بليله وضع فيها قليلاً من الرمل ونزل إلى البئر ووجد أن هناك باباً في أخر البئر يدخل على سرداب مظلم. جلس حسن وصار كلما مرَّ عليه بعض الوقت أكل شيئاً من البليلة وعندما يمضغها يجد الرمل فيوقظه من النوم (فالغول) عادة ما كان يحضر في منتصف الليل بالضبط. وطال الليل على حسن وهو يغالب النوم واضعاً

سيفه على حجره بعد أن أخرجه من غمده مواجهاً ذلك الباب المظلم يمضغ البليلة والحصى مركزاً عينيه على الباب المظلم.

وعند منتصف الليل خرج (الغول) من الفتحة فواجهه الشاطر حسن وبضربة واحدة قطع رأسه فإذا الغول يخرج رأساً آخر ويقول للشاطر حسن: أنت قايل رأسي واحد؟ فيرد عليه الشاطر حسن وأنا سيفي برضو ما واحد ويقطع رأس الغول الثاني بضربة واحدة وإذا (بالغول) يخرج له رأساً ثالثاً ويقول له: أنت قايل رأسي واحد فيرد عليه الشاطر حسن: أنا سيفي برضه ما واحد ويقطع رأس الغول الثالث وهكذا أستمر الأمر كلما قطع الشاطر حسن رأس (الغول) أخرج الغول رأساً آخر حتى حسب له الشاطر حسن سبعة رؤوس وعندها سقط الغول على أرض البئر ميتاً.

دخل الشاطر حسن في ذلك الباب المظلم فوجد نفسه يسير في سرداب طويل مظلم ولكن في أخره وعلى مسافة بعيدة لاحظ شيئاً من الضوء حمل حسن سيفه وسار نحو الضوء الذي شاهده وصار يمشي ويمشي ويمشي حتى أرهقه التعب ولكنه ظل يمشي مصمماً أن يعرف مصير فاطمة السمحة وفتيات المدينة وبعد ساعات وساعات بدأ الضوء يزداد والفتحة تكبر وأخيراً وصل حسن إلى أخر السرداب فوجد نفسه في مدينة كبيرة أرضها خضراء وسماءها زرقاء وتنتشر فيها الزهور والورود من الياسمين والورد والفل والأقحوان ورأى فيها نافورات من المياه العذبة وأشجاراً ظليلة وطيوراً صداحة جميلة ملونة.

بدأ الشاطر حسن يتقدم خطوة خطوة وهو يحمل سيفه خوفاً من ظهور غول آخر وفجأة شاهد قصراً عظيماً جميلاً فسار نحوه فوجد حيطانه مبنية بطوبة من الذهب طوبة من الفضة وأرضه من البلور وحدائقه الغناء من كل لون ونوع ولكنه لم يشاهد أحد.

وفي هذا الجو الجميل السحري والهواء المعطر بأنواع الزهور والورود والموسيقى الرائعة الصادرة من مصدر لا يعرفه والطيور الصداحة

في كل مكان في الجو سمع الشاطر حسن صوت فتــاة تبكــي تقــدم نحــو الصوت وهو يحمل سيفه مستعداً للقتال فإذا به يرى فاطمة السمحة جالسة على سرير من الحرير تحت شجرة ظليلة وهي تبكي وتنتحب.

تلفت الشاطر حسن يميناً ويساراً فلم ير أحد فتقدم نحو فاطمة بهدوء حتى لا يرعبها وعندما أقترب منها (تنحنح) بصوت خافت فتوقفت فاطمــة السمحة من البكاء ولكنها لم ترفع رأسها (فتنحنح) مرة أخرى بصوت أعلى فإذا فاطمة السمحة ترفع رأسها وعندما رأت الشاطر حسن أمامها قفــزت من مجلسها وعانقته وهي تبكي.

أجلس الشاطر حسن فاطمة السمحة في سرير الحرير وجلس بالقرب منها وقال لها أحكي لي قصة (الغول) وكيف جاء بك إلى هنا: قالت فاطمــة السمحة وهي تغالب ما بين البكاء والضحك والفرحة والحزن: كان الغــول يحضر كل عام إحدى الفتيات ويتركها لمدة عام في هذه الجنة والعام التالي يحضر فتاة أخرى ويتركها في هذا السرير الحريري ومــن حولهــا تــأتي أباريق العصير والفاكهة والأكل دون خدم ولكن (الغول) يأخذ الفتــاة التــي قضت العام في هذا القصر ويختفي بها داخل القصر يلتهما بعــد أن يــزداد وزنها وجمالها شكلها ويترك الأخرى لعام آخر وقد قــضى الغــول علــى الفتيات اللاتي أحضرهن قبلي وجاء دوري وها أنا كنــت انتظــره وأنتظــر مصيري وعندما سمعت (نحنحتك) ظننت أن الغول قد جاء.

جلس الشاطر حسن بالقرب من فاطمة السمحة في ســرير الحريــر وحكى لها حال المدينة وما أصاب أهلها من حزن وضيق وخــوف وحكــى قصته مع (الغول) وكيف تمكن من قطع رؤوسه الــسبعة وحكــت فاطمــة السمحة للشاطر حسن المباهج والنعم التي في هذا المكان الذي لا ليل فيــه ولا ظلام ولا شمس ولا حر ولا برد وشاهد حــسن كيــف تنتقــل الطيــور الملونة من كتف فاطمة السمحة إلى يدها ومن يدها إلى رأسها وهي تغنــي لها بأنغام ساحرة ولكنها وهي حزينة وخائفة لم تكن تستمتع بكل تلك النعم التي يضعها الغول للفتيات لمدة عام ثم يقضي عليهن.

لم يدرك الشاطر حسن سير الزمن ولا الساعة فلا ليل ولا نهار ولا صبح ولا مساء ولا تعب ولا إرهاق وصار هو وفاطمة السمحة في تلك النعم إلى وقت طويل لا يعرفان مداها.

وذات يوم أستمر الشاطر حسن وفاطمة السمحة في السير في طريق طويل أخضر تحفه الأزاهير وأستمرا في السير فوجدا أمامهما غابة جميلة من أشجار الصندل والعود رائحتها رائعة وازهارها جميلة فواصلا السير وهما مسحوران بتلك الروعة والجمال وواصلا السير لا تعب ولا إرهاق ولا عرق ولا حر ولا برد وسار بهما السير إلى أن وصلا إلى نهر صغير وعلى شاطئه مركب جميل مصنوع من خشب الصندل وعليه شراع جميل من الحرير الخالص فركبا في المركب الجميل فإذا بالمركب ينتفض شراعه ويمتلئ وتهب الريح ويسير بهما المركب وكأنما يسوقه ربان وقليلاً قليلاً بدأ النهر الصغير يزداد إتساعاً وأمواجه تزداد تحركاً وفجأة وجدا أن النهر قد أتصل بنهر آخر وأستمر المركب الجميل يسير بهما وتزداد سرعته ولكنه لا يهتز بهما وكأنما يسير على سطح من زجاج.

مرت الساعات لم يدركها الشاطر حسن ولا فاطمة السمحة وكأنها ردح من الزمان وإذا فجأة تظهر لهما معالم المدينة ومن على البعد تعرفا على مساكنها وشوارعها وأشجارها وازهارها وطيورها وإذا بالمركب تقف بهما على شاطئ النهر الذي هو نهر تلك المدينة التي خرجا منها وإذا أهل المدينة فجأة يظهرون وتأتي المفاجأة فقد عاد إلى المدينة فرحها وسعادتها منذ ذلك اليوم الذي نزل فيه الشاطر حسن إلى قاع البئر فقد توقف (الغول) من الحضور وأرتاحت المدينة منه ولكن ظلت المدينة حزينة وحائرة عما حدث للشاطر حسن وفاطمة السمحة وبحضورهما اكتملت فرحة المدينة وعاد لها سرورها وبهجتها وخرجت فتيات المدينة من (القاطوع) ورجعن إلى الغناء والرقص وعاد أولاد المدينة إلى الفرح واللعب والسرور وعاد رجال المدينة إلى العمل والزرع والإنتاج وعادت نساء المدينة إلى تجميل أنفسهن وإسعاد أزواجهن وبقى للمدينة شيء واحد.

أجتمع آباء المدينة ونساء المدينة وأولاد المدينة وقرروا جميعاً الاحتفال بزواج الشاطر حسن من فاطمة السمحة وتم الزواج في مسجد المدينة ثم بدأت أفراح المدينة حيث غنت الفتيات ورقصن وعرض الشباب وفرح الآباء وعادت إلى المدينة بهجتها وسعادتها وسعد الشاطر حسن وفاطمة السمحة بالزواج وخلفا أولاد وبنات ودار الزمان دورته وهكذا كان الزمان.

هذه إحدى الأحاجي التي كانت ترويها الحبوبات ولكننا رويناها بطريقة تختلف عن طريقة الحبوبات وبلغة تختلف عن لغة الحبوبات فالحبوبة قد تستعمل التشويق والمبالغة وقد تروي الحجوة في هذه الليلة وعندما ينام أطفال الحلة ثم يعودون في الليلة التالية قد تغير الحبوبة بعض الأحداث أو ترويها بطريقة تختلف عن الطريقة التي روتها بها من الليلة السابقة ولذا عمدنا إلى روايتها بلغة قريبة من لغة العصر وطريقة العصر وكم من مرة سمع أطفال الحلة حجوة الشاطر حسن وفاطمة السمحة ولكن بأحداث قد تختلف عن أحداث الغول والبئر العميقة والعالم الوردى الغريب الذي تحت الأرض.

وهناك (حجوة) أخرى هي (حجوة) الملك الجبار صاحب الجند والجيوش والقوة والبطش والتعذيب ولم يكن له ولد ولكن كانت له بنت سماها (شمس البدور) وتقول (الحجوة):

بسم الله الملك الديان والصلاة والسلام على حبيب الرحمن. كان ما كان في قديم الزمان ملكٌ، مَلَك المدن والوديان والجبال والخلجان وكان صاحب صولجان وجنود شداد فرسان وأسلحة لها صلصة الصيجان، وكان له قصر عظيم في قلعة عالية على جبل عظيم وللقصر سور عالي ارتفاعه أكثر من عشرين ذراعاً وفوق حيطانه العالية يقف الحراس بالسلاح ويحملون الفؤس والسهم يقتلون كل من أقترب من السور مهما كان شكله وغرضه ووجهته.

والله جلت قدرته مقسم الأرزاق الذي يهب الملك والسلطان ويهب البنات والغلمان لم يرزق الملك صاحب الصولجان الولد الذي يرث عرشه وملكه وما لديه من العبيد والخيول والتيجان.

كان للملك شاهرامان – وهذا اسمه – كان له بنت سماها (شمس البدور) في غاية الحسن والجمال ولكنه حبسها في غرفة عالية في أخر القلعة العظيمة ولم يترك لها سوى شباك صغير تنظر به إلى المملكة الواسعة ولكن لا يمكن أن يراها أحد.

وتحدث الناس كثيراً عن الأميرة الجميلة (شمس البدور) تحدثوا عن جمالها وطول وشعرها وعيونها وخدودها وأناملها وأقدامها وقالوا أنها شبيهة بحور الجنان.

تقدم لخطبتها الملوك والفرسان من الممالك الكثيرة التي تقوم حول مملكة الملك شاهرامان وفي كل مرة يتقدم لها خاطب يطلب الملك شاهرامان مهراً لبنته مائة من الخيل الغرر المحجلة كلها بيضاء ومائة من الخيل الغر المحجلة كلها سوداء أو كلها ربداء ومائة من الأبل محملة بنفائس الحرير الصيني والديباج الهندي والكهرمان العجمي ومائة من البغال محملة بالعطور والصندل والعودة والمحلب والزباد والمسك والكافور ثم يطلب الملك مائة من ثقل الذهب الخالص والثقل عشرة أرطال ومائة ثقل من الفضة ومائة ثقل من الجواهر والياقوت والمرجان ويظل الملك شاهرامان يعدد ويطلب فيحني الخاطب رأسه عجزاً واجلالاً وينصرف وهكذا عجز كل الملوك والفرسان من تلبية طلبات الملك مهراً لبنته (شمس البدور).

ومرت السنوات و(شمس البدور) حبيسة في غرفتها تشاهد من خلال شباكها وهي في أخر رأس القلعة كل هؤلاء وأولئك الخطاب يخرجون من قصر الملك شاهرامان ورؤوسهم محنية إلى الأرض وأعلامهم منكسة حزينين عاجزين وتبكي الأميرة (شمس البدور) وتسيل دموعها من أعلى

القلعة حتى تصل إلى أرض القصر وتمتد إلى أن تصل إلى البحيرة الصغيرة القائمة خارج القصر وعندها تبكي معها الطيور والعصافير ويغني البلبل بصوت حزين ويصفر الكنار باكياً مع (شمس البدور) وينيح العندليب الحزين.

وذات يوم من أيام الربيع وكان ذلك يوم عيد المملكة ويسمى عيد الأقحوان والذي تجمع فيه فتيات المملكة زهور الأقحوان ويلبسن سرابيل من زهور الأقحوان ويطفن أمام قصر السلطان ويخرج لهن السلطان ويقدم الهدايا والجوائز والهبات في ذلك اليوم طافت فتيات المملكة أمام القصر متسربلات بزهور الأقحوان لم يخرج الملك إلى المنصة العالية القائمة أمام القصر وتوقفت الفتيات ورددن الغناء ولكن انتصف النهار ولم يخرج لهن الملك شاهرامان فتحول الغناء إلى بكاء وزرفت فتيات المملكة الدموع وسالت الدموع مع دموع الأميرة (شمس البدور) حتى وصلت إلى البحيرة وفاضت البحيرة بالدموع وحزن الطير البلبل والكنار والشحرور والعندليب وأوقفن الغناء.

وشاع الخبر بأن الملك شاهرامان مريض وأن مرضه خطير وأرسل في المدائن كلها يطلب الأطباء وظل الملك شاهرامان رغم ما أصابه من مرض شديد التعالي فقال لرسله أنه إذا تمكن أي طبيب من علاجه زوجه الأميرة (شمس البدور) وورثه ملكه من بعده ولكن إذا عجز الطبيب من معالجته فسيقطع رأسه ويعلقه على أسنة الحراب حول سور القصر العظيم.

لقد أصاب الملك شاهرامان مرض غريب صار جلده يتفسخ ويخرج منه الدم والصديد وصارت أطرافه لا تتحرك وإذا أراد الجلوس لا يمكنه ذلك إلا إذا تعاون عدد لإجلاسه وإذا أراد الوقوف أسنده أثنان في يمينه واثنان في يساره واثنان في خلفه واحتار كل أهل القصر في مرض الملك ومنع الناس من مقابلته ورؤيته فحجز نفسه في غرفة مجاورة إلى غرفة أبنته (شمس البدور) وصار يشاهد أهل مملكته حول القصر يحومون ويبكون ولا يدرون ما حل بالملك شاهرامان.

تقدم أساطين الطب من كل مدن المملكة ودخلوا على الملك في غرفته العالية وشاهدوا حاله ووصفوا له العلاج من الأعشاب والمساحيق والأدهنة المكونة من شحوم الأفاعي والسلاحف والتماسيح وكل ما يمر وقت ويظل الملك شاهرامان في حالة أو تسوء حاله يأمر بقطع رأس الطبيب الذي عجزت وصفاته من علاج الملك ويعلق رأسه على حربة فوق سور القصر العظيم، وتعاقب الأطباء وأمتلأ السور برؤوس فطاحلة الطب وعظماء الأطباء الذين كانوا يعالجون البرص والجزام والزهري وجميع الأمراض المستعصية وأصبح الطبيب في كل مدن المملكة شخصاً نادراً وأصاب أهل المملكة عديد من الأمراض ولكنهم لم يجدوا الأطباء فزاد كدر أهل المملكة وحزنهم أولاً على أنفسهم وثانياً على ملكهم.

وذات يوم مرَّ بالقرب من قصر الملك حسان. وحسان هذا بائع خزف يحمل الخزف على ظهره ويطوف بمدن المملكة، شاب وسيم ضاحك كثير الحديث ومهزار أحبه الناس لوسامته وظروفه وملحه وسماحته فكانوا يشترون منه الخزف بكل أنواعه يغدقون عليه المال.

كان النهار قد انتصف وآوى أهل المدينة الذين كانوا يحومون حول القصر حزانى باكين آووا إلى بيوتهم وكان المكان خالياً تماماً إلا من أصوات الحراس الذين يقفون فوق سور القصر العظيم. كان اليوم حاراً وقد تعب حسان من اللف والدوران حول أزقة المدينة وباع معظم خزفه إلا من قارورتين جميلتين علقهما حول عنقه ثم أضجع تحت شجرة ظليلة ظلها وارف وأرضها باردة من رمل نظيف وأسند حسان رأسه على صخرة صغيرة وجدها تحت الشجرة وعلق بصره بأعلى الشجرة وسرح في أحلام اليقظة متصوراً نفسه فارساً وأميراً يركب الحصان ذو السرج المطعم بالذهب والفضة ويحمل السيف البتار وهكذا ظل حسان في أحلامه وإذا به يسمع (قمريتين) تتحدثان في أعلى الشجرة.

تقول الأولى للثانية: هل تعلمين أن الملك شاهرامان مريض بمرض عضال؟ فترد الثانية: وهل تعلمين بأن الملك قد أعدم كل الأطباء الذين جاءوا لعلاجه وعجزوا عن العلاج وتلك هي رؤوسهم معلقة فوق سور القصر العظيم؟ فترد الأولى للثانية وهل تعلمين أن علاج الملك من كبدتك وقلبك مجففة ومسحوقة ومخلوطة بلبن حماره أنجبت حديثاً. فترد الثانية منفعلة: حديثك هذا غير صحيح فعلاج الملك هو قلبك أنت وكبدتك مجففة ومخلوطة بلبن حصانة أنجبت حديثاً فترد عليها الأولى حديثك هذا غير صحيح.

تبدأ القمريتان في الشجار والغلاظ وتهجم الأولى على الثانية فترد الثانية على الأولى وحسان مضجع تحت ظلال شجرة دون حراك وطال صراع القمريتين وإذا هما يسقطان على صدر حسان وهو راقد تحت الظل فيقبض عليهما وسريعاً يخرج سكيناً حادة من ذراعه ويذبح القمريتين ويخرج القلبين والكبدين ثم يبسط الجميع تحت الشمس الحارة فتجف سريعاً ثم يسحن كبد وقلب الأولى ويضعها في إحدى القارورتين ويسحق كبد وقلب الثانية ويضعها في القارورة الثانية ويحمل القارورتين حول عنقه ويتقدم نحو باب القصر.

يوقفه الحراس المدججين بالسلاح فيقول لهم قد جئت لعلاج الملك فينظر الحراس إلى حالة حسان البسيطة فيطردونه من باب القصر فيذهب حسان حائراً ويعود في اليوم التالي ويقول للحراس أنا قادم لعلاج الملك فيطرده الحراس مرة أخرى وظل هكذا يأتي كل يوم ويطرده الحراس ويظل الملك يستقبل الأطباء ويعجزون عن علاجه ويقتل الأطباء وتعلق رؤوسهم على الحراب فوق سور القصر العظيم. ثم انقطع الأطباء فقد قل عددهم في المملكة وحتى خارج المملكة وخاف بقية الأطباء وتوصلوا إلى أن مرض الملك ابتلاء من الله وأن علاجه لا يأتي بالأعشاب ولا بالدهون ولا حتى بالرقيِ والتعاويذ وهكذا طال عذاب الملك وطال حزن أهل المملكة.

وذات يوم سأل الملك حاجبيه أليس هناك أي طبيب خارج الأسوار فاستفسر الحاجب من الحراس وأخبروه أن هناك بائع خزف صغير يدعي أنه سيعالج الملك ويطرده الحراس في كل مرة لأنه ليس له مسوح الأطباء ولا معرفة الأطباء ولا شكل الأطباء ولا يحمل حقائب ومعدات الأطباء.

رفع حاجب الملك شاهرامان ما قاله الحراس عن حسان فأمر الملك بإدخاله عليه حتى يعرف ما يريد. سمح الحراس لحسان بالدخول إلى قصر الملك بعد ثلاثة أشهر من أول يوم جاء فيه وقادوه إلى غرفة الملك في أعلى القلعة ومجاورة إلى غرفة (شمس البدور) بنت الملك السلطان.

دخل حسان إلى غرفة الملك فسجد وقبل الأرض أمام الملك ثم وقف أمام الملك وقال له: أيها الملك العظيم صاحب العرش العظيم والمُلك العظيم قد علمت بأن الله الأعظم قد ابتلاك بمرض عضال عجز كل أساطين الطب عن علاجه والله الأعظم قد فتح لي فتحاً أنا حسان بائع الخزف الضعيف – والله الأعظم يضع سره في أضعف خلقه – وهبني الله معرفة علاجك وكل ما أريده من خدمك وحشمك أن يأتوني لبن من حمارة ولدت حديثاً ولبن فرسة ولدت حديثاً.

أمر الملك كبير حجابه فوراً بإحضار لبن الحمار ولبن الفرس على الفور والعجل وسريعاً ما طاف رسل الملك على المدائن والامصار ووجدوا فرساً ولدت حديثاً واتان ولدت حديثاً وجاءوا بلبن الفرس ولبن الاتان وقدموه لحسان.

أخرج حسان القارورتين وصب لبن الاتان في القارورة الأولى وصب لبن الفرس في القارورة الثانية وتقدم نحو الملك وهو يحمل القارورتين وقدم الأولى للملك وقال له: بسم الله الأعظم وبسره الأعظم أنه شافيك من كل سقم، أشرب هذا وقل فوضت أمري إلى الله. فشرب الملك شاهرامان ما في القارورة الأولى بعد أن قال فوضت أمري إلى الله ثم قدم حسان للملك شاهرامان القارورة الثانية وقال له قل مثل ما قلت قبل شرب القارورة

الأولى فقـال الملك شاهرامان فوضت أمري إلـى الله وشـرب مـا فـي القارورة الثانية.

أصاب الملك شاهرامان نعاس طارئ فأغمض عينيه وأضـجع علـى سريره ونام نومة لم ينمها منذ ما أصابه المرض منذ سنوات وظل حـسان جالساً على الأرض بالقرب من الملك وجميع سـكان القـصر صـامتين لا يحدث أحد منهم أي صوت ولا حركة حتى لا يوقظ الملك.

مرَّ النهار كله ثم مرَّ الليل كله وعند بزوغ الفجر وسمع الناس صوت الأذان يقول الله أكبر الله أكبر وصل صوت الأذان إلى أذن الملك شـاهرامان فوقف منتصباً وقال الله أكبر الله أكبر لا اله إلا الله.

وإذا الملك شاهرامان يتعافى من كل ما عليه ويعود جسمه لامعاً مثل ما كان في شبابه البعيد وتعود سحنته جميلة ناصعة وينادي بأعلى صـوته الحمد لله الأعظم الديان والفضل كل بعد الله سبحانه وتعـالى يرجـع إلـى حسان بائع الخزف الأمين التعبان.

أمر الملك شاهرامان بدق الطبول وصياح المزامير وتبليغ جميع أهل المملكة أن الملك شاهرامان قد بلى وشفى من علته وزال مرضـه وجعـل حسان ولي عهده وأمر بزواج أبنته (شمس البدور) إلـى حـسان وأغـدق عليه الهدايا وخلع عليه حرائر الطنافيس والبسه ملابس الأمراء والملـوك. وعندما سمع سكان المملكة في كل المدن بأن حسان بائع الخزف قد عـالج الملك شاهرامان وكانوا من قبل يحبون حسان بائع الخزف فتحـول حـبهم إلى حسان ولي عهد المملكة وزوج بنت السلطان.

وضربت الطبول وصدحت المزامير وفرح كل أهل المملكة وأمر الملك بإقامة مراسم زواج حسان من (شمس البدور) وفعلاً تم زواج حسان مـن (شمس البدور) ونزلت (شمس البدور) من غرفتهـا فـي أعلـى القلعـة وانضمت إلى عريسها حسان وفرشت لهم الحرائر والديباج فـي جناحهمـا الخاص وغنى المغنون ورقص الراقصون وظلت كل المملكـة فـي أفـراح

ذبحت الذبائح وفرشت الموائد في الطرق والأسواق وابتهج أهل المملكة جميعاً ودامت الأفراح ثلاثة أشهر متوالية وصار حسان ولياً للعهد ومستشاراً للملك شاهرامان يقضي له حاجاته ويمثله أمام الملوك والسلاطين والفرسان.

ومرَّ الزمان وتعاقبت الأيام ثم الشهور ثم السنين والكل في سعادة وحبور وازدهرت المملكة وقويت علاقاتها بكل ملوك الأرض وصار حسان محبوباً ومعروفاً لكل الملوك والسلاطين يمثل الملك شاهرامان في كل مكان.

وكبر الملك شاهرامان وشاخ ولكن ظلت صحته جيدة وعقله واعياً وأمتدت سعادته لكل أهل المملكة ومرَّ زمان.

وذات يوم رأى الملك شاهرامان رؤية سعيدة بأن الأميرة (شمس البدور) قد حبلت ووضعت ولداً فلما تحدث مع الأميرة عرف أنها حبلى ففرح الملك شاهرامان فرحاً شديداً وصار يترقب يوم وضوع الأميرة وبعد تسعة أشهر وعشرة أيام وضعت الأميرة (شمس البدور) أبناً ذكراً جميلاً وجهه كالبدر وابتسامته كالبرق وعيونه كالنجوم وهنا قرر الملك التنازل عن العرش لحسان وأن يكون ولي عهده المولود الجديد وفوراً سماه حسان شاهرامان على اسم جده الملك العظيم وتولت الأميرة (شمس البدور) والتي صارت ملكة فرزقها الله بعد شاهرامان البنين والبنات وسعدت كل المملكة بسعادة الأسرة الملكية وفرحت فرحاً شديداً.

وبعد أن تخطى الملك شاهرامان المائة من العمر ذات يوم عندما سمع الناس أذان الفجر كان الملك شاهرامان قد فارق الحياة وهو في سريره.

وحزنت المملكة حزناً شديداً على موت الملك شاهرامان ومرت الأيام وتعاقبت السنين وعاش أهل المملكة في سعادة وحبور وتوالت عليهم الرحمات والبركات وصارت ذرية حسان بائع الحزف وذرية الملك

والسلطان وهذا هو حكم الخالق الديان يهب الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء هو ملك الملوك وصاحب السلطان.

هذه حجوة أخرى من أحاجي الحبوبات رويناها بطريقة تختلف عن طريقة الحبوبات وبصورة ربما تختلف عن صور أحاجي الحبوبات ولكنها ترسبت في العقول والقلوب على مدى خمسة وستين عاماً بعد أن سمعناها من أفواه الحبوبات تكررت وتغيرت تبدلت ليلة بعد ليلة ولكنها أثرت الخيال وعمرت العقول والقلوب.

لقد روت لنا الحبوبات عشرات من الأحاجي وتعددت صور تلك الأحاجي من ليلة وليلة ولكنها في مجموعها قد بلغت أهدافها من ترشيح قيم الشجاعة والحب والتضحية والقوة والوفاء ولكي تكون الصورة كاملة أو قريبة من الكمال لدى أولاد الحلة الجديدة الذين لم يدركوا جيل الأحاجي وتاهوا في خضم ألعاب الفيديو وقصص توم أند جري ودونالددك لكي تكتمل الصورة أروي (حجوة) ثالثة من أحاجي الحبوبات لها روعتها وهدفها وجمالها ، تقول حبوبة:

بسم الله الرضى الرحيم راعي المسكين ورافع اليتيم وقاهر الظالم اللئيم. تقول حدث في قديم الزمان في مدينة عامرة بالكرام أن هناك تاجراً غنياً كريماً طيباً رزقه الله ثلاث بنات وكان هو سر التجار كانت البنت الكبرى (نور الصباح) والثانية (ضياء النهار) والثالثة الصغرى (بدر الزمان) وكان التاجر كثير الأسفار له تجارة واسعة في كثير من البلدان وكان كلما نوى السفر وجهز الجهاز وحضر الزوامل والعتاد جمع بناته الثلاث ليودعهن ويسأل كل واحدة ما تحب أن يحضر لها من سفره البعيد، فتقول (نور الصباح) أريد الحرير الديباج فيرد والدها سر التجار، على السمع والطاعة يا (نور الصباح) ثم يسأل بنته الثانية وأنت يا (ضياء النهار) فتقول له أريد الجواهر والمرجان فيقول لها على السمع والطاعة يا (ضياء النهار) ثم يسأل الصغرى وأنت يا (بدر الزمان) فتقول له بدر

الزمان، أريد سلامتك وتكبر عمامتك وسط جماعتك فيرد عليها سر التجـار لك السعادة والسلامة ثم يودع بناته الثلاث ويتحرك بركبه خـارج المدينـة بعد أن يودع التجار وأصحاب الشأن الكبار.

ويغيب سر التجار وتطول غيبته وتظل بناته الثلاث يتـرقبن عودتـه لكن (بدر الزمان) كانت تصلي وتدعو لوالدها بـالعودة والـسلامة. وتمـر الشهور بعد الأيام ويتغير الجو من الحر إلى البرد ومن الجفاف إلى السحب والغمام وتنزل الأمطار ويخرج الناس للزراعة في الوديان والأمصار وفـي يوم صحو من أيام العام يسمع سكان المدينة أصوات الركبان وتعود القوافل محملة بعظيم البضائع ونفيس الحلي وكل جميل وتستقبل المدينة سر التجار وتهننه بالسلامة والعودة ويجمع بناته الثلاث ويعانقهن ويقبل خدودهن ثـم يخرج من طيات حقائبه الحرير الديباج لبنته (نور الـصباح) فتـسر نـور الصباح سروراً عظيماً وتفرح فرحاً كبيراً ثم تقبل والدها على رأسه وعلـى يده شاكرة مقدرة ثم يخرج من طياته حقائبه الجواهر والمرجان فتسر بنته (ضياء النهار) سروراً عظيماً وتفرح فرحاً كثيراً ثم تقبل والدها على رأسه ويده شاكرة مقدرة ثم يخرج من طيات حقائبه ما لم تره عين مـن الحلـي الذهبية واللؤلؤ والعقيق ثم الكساوي المطعمة بالذهب والفضة والمنقوشـة بالعاج ثم يقدم لها رائع العطور والصندل والعود يقـدم كـل ذلـك لبنتـه الصغرى (بدر الزمان) فتفرح فرحاً شديداً ثم تسجد وتقبل قدمي والدها سر التجار ثم تقبل يده ورأسه وتنحني شاكرة مقدرة.

عندما ترى (نور الصباح) و(ضياء النهار) ما أخرجه سر التجار من طيات حقائبه إلى أختهما (بدر الزمان) تصيبهما غضب شديد تأكـل الغيـرة والحسد قلبيهما لأن (بدر الزمان) لم تطلب تلك الأشياء الرائعة بـل قالـت لوالدها سر التجار عندما جاء يودعها (أريد سلامتك وكبر عمامتـك وسـط جماعتك) وتساءل الأختان لماذا أختص والدهما سر التجار أختهمـا (بـدر الزمان) بكل هذه الأشياء.

ويمر الزمان وتتعاقب الشهور بعد الأيام ويظل كبير التجار وسر التجار في تجارته يزداد ربحه ويكثر ماله ويسعد أهله وجيرانه لكن البنت الصغرى (بدر الزمان) تقتسم كل العطور والصندل والعودة والحلي مع اختيها (نور الصباح) و(ضياء النهار) وتحاول طول الوقت اسعادهما ولكن كل ذلك لا يقلل من الحسد والغيرة التي تشعر بها (نور الصباح و(ضياء النهار).

ويأتي بعد الشتاء الربيع وبعد الربيع الصيف الحار ثم تأتي الغيوم وتنزل الأمطار ويزيد الزرع وتكثر المحصولات ويشد سر التجار الرحال ويتوجه إلى المدن والأمصار وهو يحمل التجارة وقبل سفره يجمع بناته الثلاث ليودعهن ويطلب منهن ما يردن من سفرته فتنحني (نور الصباح) مثل ما جاء به في المرة السابقة لأختها الصغرى (بدر الزمان) فيرد عليها كبير التجار وسر التجار على السمع والطاعة (يا نور الصباح) ثم يسأل بنته الثانية (ضياء النهار) فتطلب مثل ما جاء به لأختها الصغرى في المرة السابقة فيرد كبير التجار وسر التجار على السمع والطاعة يا (ضياء النهار) ثم يسأل بنته الصغرى (بدر الزمان) فتنحني (بدر الزمان) وتقبل رأس والدها سر التجار وتقبل يده ثم تقول له أريد سلامتك وكبر عمامتك وسط جماعتك فيقبل سر التجار بنته على خدها ويقول لها بارك الله فيك. ثم يتوجه سر التجار خارجاً من المدينة بعد أن يودع التجار واصحاب الشأن الكبار.

ويغيب سر التجار وتطول غيبته وتظل بناته الثلاث يترقبن عودته لكن (بدر الزمان) كانت تصلي وتدعو لوالدها بالعودة والسلامة. وتمر الشهور بعد الأيام ويتغير الجو من الحر إلى البرد ومن الجفاف إلى السحب والغمام وتنزل الأمطار ويخرج الناس للزراعة في الوديان والأمصار وفي يوم صحو من أيام العام يسمع سكان المدينة أصوات الركبان وتعود القوافل محملة بعظيم البضائع ونفيس الحلي وكل جميل وتستقبل المدينة سر التجار وتهنئه بالسلامة والعودة ويجمع بناته الثلاث ويعانقهن ويقبل خدودهن ثم

يخرج من طيات حقائبه كل ما طلبته بنته الكبرى (نور الصباح) وهو ما جاء به لبنته الصغرى في المرة السابقة فتفرح نور الصباح فرحاً شديداً وتسر سروراً عظيماً ثم تقبل رأس سر التجار وتقبل يده شاكرة مقدرة ثم يخرج من طياته حقائبه كل ما طلبته بنته (ضياء النهار) وهو نفس الذي أحضره لبنته الصغرى في المرة السابقة فتفرح ضياء النهار فرحاً شديداً وتسر سروراً عظيماً ثم تقبل رأس سر التجار ثم تقبل يده شاكرة مقدرة ثم يخرج من طيات حقائبه حذاءً من ذهب وكسوة رائعة منقوشة بالجواهر واللؤلؤ والمرجان ثم يخرج صندوقاً من العاج مطعم بالياقوت والذهب إذا لمسته في اليمين أخرج الموسيقى وإذا لمسته من اليسار أخرج الغناء وقدم كل ذلك لبنته الصغرى (بدر الزمان) وسجدت وقبلت أرجل سر التجار ثم قبلت يده ورأسه شاكرة مقدرة.

أصابت الغيرة (نور الصباح) البنت الكبرى و(ضياء النهار) البنت الوسطى وقضين الليلة ساهرات وفي الصباح ذهبتا إلى ساحرة لعينة في أخر المدينة وشكيا لها ما جاء به سر التجار لأختهما الصغرى (بدر الزمان) وطلبا منها رقية أو وصفة تغير رأس سر التجار في بنته الصغرى (بدر الزمان) فجلست الساحرة اللعينة إلى شياطينها ثم قالت لنور الصباح وضياء النهار (عندما يخرج سر التجار في المرة القادمة قولا (لبدر الزمان) تطلب من سر التجار أن يحضر لها (مشط لولي).

ومر الزمان وتعاقبت الشهور بعد الأيام وجاء بعد الشتاء والبرد الربيع ثم جاء الصيف وزاد حر الصيف في ذلك الزمان ثم جاءت الغيوم والسحب ونزلت الأمطار وخرج أهل المدينة للزراعة في الوديان والسهول والخلجان وفي ذلك العام ازداد إنتاج الزراعة وكثرت البغول والحبوب والفاكهة والخضر وأمتلات الأسواق بالفاكهة كالتفاح والمنقة والرمان.

عندما أستعد سر التجار إلى الخروج وجهز البضائع على الزوامل جمع بناته الثلاث ليودعهن وسأل بنته الكبرى (نور الصباح) ما تريده هذه المرة فطلبت مثل ما أحضر لأختها الصغرى (بدر الزمان) فقال سر التجار

على السمع والطاعة ثم قبلها مودعاً ثم سأل بنته (ضياء النهار) ما تريد هذه المرة فطلبت مثل ما طلبت أختها الكبرى (نور الصباح) فقال سر التجار على السمع والطاعة ثم قبلها مودعاً ثم سأل بنته الصغرى (بدر الزمان) فقبلت أقدامه ثم قبلت يده ثم قبلت رأسه ثم قالت له (أريد مشط لولي). أبتسم سر التجار وقال لبنته (بدر الزمان) إن كان (مشط لولي) على الأرض أحضره لك وإن كان في قاع البحر أحضرته لك وإن كان في عنان السماء أحضرته لك على السمع والطاعة ثم قبلها مودعاً. ثم توجه سر التجار خارجاً من المدينة بعد أن ودع التجار وأصحاب الشأن الكبار.

ويغيب سر التجار وتطول غيبته وتظل بناته الثلاث يترقبن عودته لكن (بدر الزمان) كانت تصلي وتدعو لوالدها بالعودة والسلامة. وتمر الشهور بعد الأيام وتطول غيبة سر التجار وتتعاقب الفصول بعد الشتاء والبرد يأتي الربيع وبعد الربيع تأتي الحرارة والصيف ثم تتجمع السحب وتنزل الأمطار ويخرج أهل المدينة للزراعة في الوديان والأمصار ويقضي العام ويعود البرد والشتاء ثم يأتي الربيع ثم يأتي الصيف بالحر وتطول غيبة سر التجار ويصيب الناس في المدينة كدر شديد لغياب سر التجار خوفاً من أن يكون قد أصابه مكروه ولا يدري أحد ما حدث لسر التجار.

أما سر التجار بعد أن طاف بالمدن والأمصار وباع وأشترى وربح وزاد ماله وجهز للعودة إلى المدينة تذكر طلب بنته الصغرى (بدر الزمان) فعاد يطوف المدن مرة أخرى وبدأ يسأل عن (مشط اللولي) وفي كل مكان ذهب إليه يلوذ الناس بالصمت ولا يرد عليه أحد وظل ينتقل من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية وهو مصمم على الحصول على (مشط لولي) الذي طلبته بنته الصغرى فلم تطلب منه أي شيء قبل ذلك فطاف وجال وابتعد كثيراً وجاء إلى عالم لم يصله من قبل وعندما سأل عن (مشط لولي) أعتدى عليه الناس واوسعوه ضرباً فكان يقول دائماً (هذا طلب بنتي بدر الزمان) فتزاد القسوة عليه ويزداد الاعتداء عليه ولكنه ظل مصراً على البحث عن (مشط لولي) إلى أن وصل إلى أخر الأمصار، ضاعت أمواله

وزاد تعبه وتمزقت ثيابه وزادت الجروح في كل جسمه فجلس تحت ظل شجرة خيزران وبدأ يصلي ويسأل الله وهو يبكي ويتبتل وإذا كلب (ارقط) يخرج له من تحت شجرة الخيزران وينبح ويزيد في النباح وكان سر التجار يحمل أخر زاد فلما رأى الكلب ينبح جائعاً قدم له أخر الزاد فأكل الكلب أخر الزاد وإذا الكلب يتحول فجأة إلى أمير يلبس الحرير ويحمل سيفاً مطعم بالذهب والياقوت ويسجد لسر التجار شاكر ومقدراً ويقول له: قد أعتدت عليَّ ساحرة لعينة ومسختني كلباً وقالت لي لا تعود إلا إذا اعطاءك شخص آخر زاده وآثرك على نفسه ووهب لك الحياة وهو مشرف على الموت ولذا أتمنى منك أن تطلب مني ما تريد.

جلس سر التجار إلى الأمير وحكى له حكايته من أولها وأنه غاب عن أهله وبلده وبناته ما يزيد على ثلاث سنوات وهو لا يدري ما حدث للجميع وطوال ذلك كان يبحث عن (مشط لولي) لبنته الصغرى (بدر الزمان) وهو الطلب الوحيد الذي طلبته منه فقرر أن لا يعود إلا ويحمل لها معه (مشط لولي) ثم حكى للأمير ما عاناة طوال ذلك الوقت وكيف ضاعت أمواله وتجارته فضحك الأمير ضحكة عالية ثم ضحك مرة أخرى ضحكة عالية ثم ضحك مرة ثالثة ضحكة عالية ثم صفق بيديه ثلاث مرات.

عند الصفقة الثالثة انشقت الأرض وخرج منها عشرات الخدم والحجاب ثم جاءت الخيل المطهمة وهي تجر المركبات المنقوشة بالذهب ثم تخرج فرق الجنود والموسيقى ويتقدم الأمير من سر التجار ويقبل يده ويقول له (أنا مشط لولي) وها أنا أسير معك إلى بنتك (بدر الزمان) بكل ما عندي من ملك ومال وخدم وحشم وستكون مدينتي ومالي كلها لك ولبنتك فقد أخرجتني من الظلمات إلى النور ومن الحزن إلى السرور ومن الأسى للحبور ثم خلع على سر التجار الملابس الغالية والسرابيل العظيمة وسارت الركبان تشق الأمصار والمدن والتخوم إلى أن وصلت كل تلك الركبان إلى مدينة سر التجار ففوجئ الناس بوصول سر التجار بعد غيبة ثلاث سنوات واستقلبت البنات الثلاث سر التجار بدموع الفرح والسرور وعندما شاهد

الأمير البنت الصغرى (بدر الزمان) نزل من مركبته وبسط لها ذراعيه وقال لها أنت نفس (بدر الزمان) التي رأيتها في المنام والتي حاولت الساحرة اللعينة ابعادك مني والقضاء على سر التجار.

فرحت (بدر الزمان) بعودة والدها سر التجار فرحت فرحاً شديداً ثم ابتهجت بقدوم هذا الأمير الجميل وإذا بكل المدينة تخرج فرحاً وسروراً وبعد أيام فقط تزدان المدينة ويفرح الجميع بزواج الأمير من (بدر الزمان) وتطول الأفراح ويزداد السرور ويعود سر التجار إلى تجارته وتمتد أعماله إلى مدينة الأمير ويتسع عمله ويعيش الجميع في فرح وسرور وإذا ببنات سر التجار (نور الصباح) و(ضياء النهار) يتقدم لهن أخوان الأمير وتم الزواج الثلاثي ويعيش الجميع في سرور وفرح وحبور ويخلف الجميع الذكور والبنات ويدور الزمان وتتعاقب الشهور بعد الأيام وكل ذلك من رحمة رب الأنام.

***

(٨)

لكي تكتمل الصورة للحلة وأولاد الحلــة هنـــاك فئـــة مـــن النـــساء والأمهات اللاتي لسبب ما اضطرتهن الظروف للعمل والكفـــاح لـــيس فـــي خياطة الطواقي والمناديل داخل البيت ولكن للخروج للعمل خارج البيت.

هناك من تدخل القدر وذهب رب البيت إلى الدار الآخرة وقد ذكرنا أن العديد من رجال الحلة ذهبوا بالأمراض المستعصية مثـــل الـــسل الرئـــوي وغيره وتركوا الأمهات مع الأولاد والبنات. وقد ذكرنا أن الأسرة في الحلة أساساً من الفقراء جداً والفقراء ومن هم أحسن قليلاً من الفقراء وهـــؤلاء قلة فإذا مات الوالد الفقير جداً أو الفقير وترك البيت بـــالقطع يـــستحيل أن يترك للأسرة إرث تعيش منه وهناك من تدخل أبليس وطلقها رب الأســـرة وذهب إلى جهة أخرى وترك المسئولية في عنقها ولذا ظهرت فـــي الحلـــة مكافحات مؤمنات يحملن المسئولية ولبسن وظيفة الأم والأب، ومن أولئـــك عدد في الحلة نسوق فقط بعض الأمثلة كما أن هناك من رأت أنه بامكانهـــا أن تساعد رب الأسرة بالعمل بصورة من الصور حتـــى يرتفـــع مـــستوى الأسرة أو يتمكن أولاد الحلة من مواصلة التعليم أو اتفاق صنعة ما.

أول هؤلاء الأمهات عواسات كسرة (الانجيرا) وفي الحلة أكثـــر مـــن واحدة وكلمة (الانجيرا) ربما جاءتنا من الحبـــشة فهـــي مـــستعملة هنـــاك للكسرة. في ذلك الزمان لم ينتشر الفول والرغيف في الكناتين وقدرة الفول كانت في المطاعم فقط كما الرغيف يعتبر شيئاً أغلى من مـــستوى الفقـــراء جداً والفقراء وهم الغالبية من السكان وخاصة الطبقة العاملة في الأســـواق وعملية بيع الكسرة تجهز في المساء ومعها فـــي الغالـــب الأعـــم مـــلاح الشرموط بالويكة وفي ذلك الزمان يمكن في المساء أن تشتري المرأة وقة

اللحم من سوق الجزر بقرشين أو أقل من ذلك لأنه ليس بامكـــان الجـــزار حفظ ما بقى من لحم في ثلاجة أو فريزر فهذا الأمر لم يكن معروفاً.

تقوم ست الكسرة بعواسة الكسرة وإعداد الملاح وتحمل ذلك الطبــق على رأسها والملاح في جردل بيدها وتذهب إلى منطقة خاصة فـــي ســـوق النسوان في شارع العرامة قريباً من سوق الخضار. في ذلك المكان يتجمع العمال وتقدم لهم الكسرة والملاح بسعر يتناسب مع دخلهـم وفـي نفـس الوقت يعود عليها بربح مناسب يساعدها على تسيير البيت وعادة ما تكون الكسرة من الفتريتة وهي في ذلك الزمان أرخـص أنــواع العيـوش أمـا الصفراء فلا يأكلها إلا من هم أحسن قليلاً من الفقراء أو كثيراً وهناك مــن لا تقدر على حمل الكسرة والملاح إلى السوق وفي المساء خاصـةً ولـذلك أذكر أن هناك إحدى فقيرات الحلة تقوم بإعداد كميـة كبيـرة مـن بليلـة (اللوبيا) وتبيعها لفقراء الحلة ومن هم فقراء جداً وتلك البليلة ثبت فيما بعد بأن بها فائدة غذائية ممتازة وبها ١٨% بروتين نباتي أكثر صـحية مـن بروتين اللحوم وتلك إحدى نعم الله على الفقراء.

وكذلك نجد في الحلة أكثر من (دلالية) و(الدلالية) هــي التــي تبيــع أنواع معينة من الاحتياجات للنساء بالذات، والدلاليات أنفسهن أنواع ولذلك بسبب التخصص. فهناك من يقتصر عملها في بيع (الفراد) للنساء أما نقداً أو بالأقساط وهي في نفس الوقت تتفق مع النساجين على أسـعار معينـة وطريقة معينة للدفع أيضاً وقد يمتد نشاط بعضهنّ إلى خارج الحلة أو ربما إلى خارج أم درمان. كما أن هناك دلاليات يعملن في أكثر من صنف وأولئك قد يكون لهن رأس مال أكبر ومصادر متعددة لجلب الاحتياجات.

وهناك صنف آخر من الدلاليات يمكن أن تـسميه دلاليـات الحـج، فأولئك يذهبن إلى الحج كل عام وعند العودة يحضرن أنواعاً متعـددة ممـا تحتاج له المرأة في السودان ومن ذلك أنواع العطـور المختلفـة وأنــواع الخرز والسوميت والقصيص كما يحضرن أنواعاً معينة من الملابس ربمـا

لا توجد إلا في السعودية وكذلك أنواعاً من البخور واللبان والأعشاب وغيرها. إن بعض دلاليات الحج ربما يعتبرن من الموسرات فهن يذهبن الحج كل عام تقريباً وتجارتهن قد تكون ببضع مئات من الجنيهات والتي في ذلك الزمان تعتبر من تجارة الموسرين لأن صاحب الكنتين في الحلة قد لا يتعدى رأس ماله الخمسين جنيهاً.

وهناك فئة أخرى من النساء العاملات تلك فئة (المشاطة) أو الماشطة وهي التي تقوم بمشط الشعر للنساء ومن أولئك من أشهرهن يحسن تمشيطهن ودقته والحفاظ على قوته وتلك الفئة قد تحجز لتمشيط العروس في موسم الأعراس ولبعض الماشطات دخل جيد يساعد الأسرة كثيراً في متطلبات الحياة بالإضافة إلى أنها عندما تذهب إلى أحد البيوت للمشاط يقدم لها أطيب الطعام وأحسنه وبعضهن يطلبن السجائر والقهوة.

ومن طرائف الزمان الماضي عندما كانت بنات الحلة خلف الأسوار العالية لا يراهن أحد، وإذا خرجن لا يخرجن إلا ليلاً وبحراسة الأخوان وإلى أماكن محددة. في ذلك الزمان للدلالية أو المشاطة مهمة خاصة وهي اخراج أسرار البيوت المغلقة وهن اللاتي يعرفن البنات الجميلات أو المربيات تربية ممتازة فينقلن ذلك إلى البيوت الأخرى وإلى الشاب الذي يتطلع إلى الزواج ولا يجد الفرصة للنظر أو الوصول إلى ربات الخدور اللاتي يصعب أو يستحيل الوصول إليهن وربما يحدث ذلك بتكليف من أولئك الشباب وفي مقابله هدايا قيمة إذا ما تمت المساعي والوصول إلى الغاية المرجوة وهناك المتطوعات باخراج أسرار تلك البيوت أما لمودة منها مع أهل البيت أو كهدية تقدمها للشاب طالب الزواج أو لمودتها مع أهله.

لم تعرف في الحلة مهنة الخاطبة كما هو الحال في مصر مثلاً فتلك سيدة متخصصة تعمل بأجر وتدخل البيوت بتكليف من طالبي الزواج وتنقل كل التفاصيل عن الفتيات المناسبات للزواج وعن أهلهن وظروفهن وما إلى

ذلك فما يود أن يعرف الشاب وبالرغم من ذلك فإن هناك هواية أو متعة تجدها بعض النساء في ربط الفتيات بالشبان للوصول إلى الجمع الحلال على كتاب الله وسنة رسوله وأولئك قد يصلهن الثواب إن خلصت النيات.

وهناك أيضاً من المدرسات اللاتي قد يعجبهن بعض تلميذاتهن ويوددن أن يجدن لهن الزوج المناسب فقد ترشح المدرسة فتاة لقريب أو صديق أو شقيق صديقة فتاة كانت تلميذة لها في المدرسة الوسطى وانتقلت التلميذة إلى الثانوية أو الجامعة ولكن يظل إعجاب المدرسة بتلميذتها ومن ثم ترشحها للقريب أو قريب الصديقة أو حتى صديق لزوجها هي.

وكما ذكرنا فإن في كل حلة مدرسة أو اثنين وفي كل حلة ماشطة أو اثنين وفي كل حلة دلالية أو اثنين ومن ثم ينسجم الوضع في كل الحلال وتسير الحياة بطريقة منظمة وتلقائية ليس لشخص واحد العمل على تنظيمها ولكن رب الكون وطريقة الحياة في أم درمان العظيمة والخلفيات التاريخية، لتكوين المدينة كل هذه الأشياء جمعت وخلقت وحدة سكانية من خلايا متجانسة يدور بعضها حول بعض مثل ما تدور الكواكب حول النجوم والشموس ويخرج من كل ذلك الكون العظيم ويتكرر وقد تتغير وتحل منظومة جديدة محل المنظومة القديمة ولكن يظل الكون يمشي إلى غاية رسمها رب الكون وأوكل مخلوقاته بتنفيذها لتصل إلى غايتها.

وهناك فئة أخرى هي (الوداعية) أو رامية الودع والتي تدعى أنها ترى ما بين تلك الودعات السبع كل ما وراء حجب المستقبل من زواج وطلاق وموت وسفر هذا إذا اعتبرنا رمي تلك الودعات السبع عملاً ورمي الودع من أكبر هوايات نساء الحلة فهو في ذاته يعتبر نوعاً من الترفيه والتحدث عن الغيب. ورامية الودع تتمتع بذكاء شديد وتتحدث بكلمات فيها الكثير من الرمزية التي تحتمل عدة تفسيرات. فهي تتحدث عن (الوحيد) و(تاني أخوانه) و(ود الثلاثة) و(ود السرة) وتتحدث عن (الطيه) وتتحدث عن (مقطع بحر).

وتدعي بعض راميات الودع أنها رأت السبع ودعات في المنام أو أنها مرضت مرضاً شديداً وعندما برئت منه رأت ودعاتها السبع. في كل هذا تجلس رامية الودع ويوضع لها البياض وهو عبارة عن قطعة من النقود على الأرض ثم تسطح التراب وترمي ودعاتها السبع ثم تتحدث وبعضهن يتحدثن وكأنهن في غيبوبة ويقول البعض أن لبعض الوداعيات صلة بالشياطين والله أعلم.

والطريف في الأمر أن كل تلك النساء العاملات توجد منهن واحدة أو اثنين في كل حلة من حلال أم درمان وقد تشتهر سمعة الواحدة في حلة فتنفتح لها حلة مجاورة وثالثة ورابعة.

الناظر إلى كل هذا (الموزايك) من البشر في الحلة وتكرره في كل حلال أم درمان تكتمل في مخيلته صورة رائعة لتكوين أم درمان، صورة لم يخطط لها بل جسمت من الواقع الطريف لهذه المدينة الرائعة.

وإذا أعدنا النظر لوجدنا أولاد الحلة وبنات الحلة هما القاعدة الأساسية لتكوين الحلة ثم مجموعة الحلال التي قد تسمى (الفريق) وتتكون مناطق المدينة من عدة فرقان. بعض تلك (الفرقان) تعتبر من أقدم التكوينات للمدينة فقد تسمع بفريق الركابية وفريق السيد المكي وفريق فقر فريق العرب وفريق المغاربة وهكذا.

لقد عمد الحكام الإنجليز إلى تقسيم أم درمان القديمة إلى أربعة أرباع ولكل ربع شيخ ربع وكل ربع قسم إلى أربع حارات ولكل حارة شيخ ولكن أهل أم درمان لم يحفلوا بهذا التقسيم إلا في الوجهة الرسمية حتى أنه عندما توسعت المدينة شمالاً وغرباً وجنوباً اضطرت الحكومة إلى تسمية الحارة الخامسة في الربع الرابع وأصبح في الربع خمس حارات.

وبالرغم من وجود التقسيم القديم لمدينة أم درمان والذي قد يكون بدأ منذ المهدية على أساس استقرار بعض قادة المهدية مثل أبي روف وود نوباوي وقلعة الفتيحاب وبيت المال والموردة أو ما أطلق عليه لاحقاً بعض

أسماء مفتشي مركز أم درمان الإنجليز مثل فريق ريد أو فريق برامبل إلا أن الحلة ظلت أقوى رابطة بشرية في المدينة وأساسها أولاد الحلة لأن الحلة نمت بهم وقامت عليهم وهم أنفسهم نموا مع الحلة سفوا من ترابها وهم يلعبون الدافوري وانقمسوا في طينها في الخريف وإكتوا بحرها في الصيف وكبروا وعشقوا بناتها وتعلموا من رجالها وأمهاتها.

قد يجد المرء الصديق والزميل في العمل وفي الدراسة والسفر والزمالة ولكن يظل ود الحلة هو الشخص الأقرب والأصدق في مودته وحبه لأن الرابطة التي ربطت بينهما لم تكن فيها مصلحة ولا غرض ولا منفعة بل أشجار غرستها الطبيعة في مكان معين قامت بجوار بعضها البعض وتعانقت أقصانها وارتبطت جذورها داخل الأرض ومهما يحدث بعد ذلك وتنقل الشجرة من مكانها الأول تظل مرتبطة به يجري في عروقها ذلك الدم المختلط بينها وبين ما كان معها من أشجار.

والحلة تعبير عربي صحيح وتقسيم سكاني قديم جداً لم يكن مستحدثاً في السودان وحده بل في كل تاريخ التجمعات العربية والمقصود منه أنه كلما حلّ عدد من الناس في مكان ما واستقروا به تكونت حلة وذلك بالضبط ما حدث في الحلة التي نتحدث عنها فبائع القش والطياني والدقاق والحداد والترزي والمنجد والنجار وست الانجيرا والمشاطة والدلالية كل أولئك جميعهم الحلة وربما لم يكن بعضهم يعرف بعض قبل الوصول إلى الحلة أو أنهم انتقلوا من حلة أخرى ليحلوا في هذه الحلة ومن ثم تكونت منهم الحلة الجديدة ولذا تأكيداً لهذا أو هناك في مدينة الخرطوم ما يسمى (الحلة الجديدة) ويفهم من هذا أن بقية حلال الخرطوم القديمة كانت قبل ذلك ثم حل أناس جدد في الموقع الجديد فتكونت منهم (الحلة الجديدة).

أولاد الحلة بالرغم من الفقر الشديد الذي نشأوا فيه أو الفقر أو أحسن من الفقر قليلاً وبالرغم من التراب الذي سفوه في الحلة والعرق الذي تقطر في أرض الحلة وربما الدم الذي نزف على تراب الحلة أولاد

الحلة بالرغم من كل ذلك فهم الأساس لبناء هذا الصرح العظيم الذي يسمى أم درمان.

هناك فرق كبير بين الأمية والجهل فكل أمهات الحلة في ذلك الزمان أميات لا يعرفن القراءة والكتابة وهذا التعبير الصحيح للأمي أي هو من لا يعرف القراءة والكتابة ولكن ليس ذلك يعني أنه جاهل فأمهات الحلة ليست جاهلات بل لديهن معرفة تامة بأدق دقائق التربية والتوجه ليس للبنات بل حتى لأولاد الحلة.

وفي الحلة التي نتحدث عنها أمهات رائعات في التربية ونتاج تلك الروعة ما وصل إليه أولاد الحلة لأن الأب الفقير جداً أو الفقير نجده في الواقع في حالة صراع مع الحياة ليوفر لقمة العيش والعبء الأكبر في التربية قد يكون مسئولية الأم أولاً، لأن الأبن قد يقضي الوقت الأطول من اليوم مع الأم وثانياً أن الأم تحمل في قلبها الأمل في المستقبل وليس هناك بالنسبة لها مستقبل سوى ود الحلة ولدها ولذا ربما تكون هي الأكثر حرصاً على توجيهه لقد تحدثت عن والدة ود الحلة أحمد عمر خلف الله في أيام زمان الكتاب الذي نشر في أوائل السبعينات من القرن الماضي ووصفت كيف أني عندما أدخل على منزل ناس أحمد عمر أجد والدته (نور الشفيع) جالسة وأمامها المنقد. وهي تعد الشاي للأولاد والبنات وأب الأولاد والبنات ووصفتها بأنها كانت ذات جمال دائم وهدوء وطول بال وإيمان وصبر.

هكذا كانت العديد من أمهات الحلة ليست العاملات خارج البيت أو بائعات الانجيرا أو بائعات اللقيمات في الصباح في ركن الحلة بل الأمهات اللاتي يعملن كما يقول المثل المصري (من الفسيخ شربات) أي أن الواحدة منهن لها (بصارة) قادرة على أن تجعل من (السخينة) وهي عبارة عن بصل وزيت وملح وبهارات، قادرة أن تعمل من هذا وجبة رائعة (ولذيذة) قد يفضلها بعض أولاد الحلة على وجبة اللحم.

وهناك العديد من أمهات الحلة ينسب لهن الأولاد والبنات، بالطبع ليس في المدرسة ولكن العديد من الأولاد الحلة يقال له (ود آمنة بت حسن) أو (ود حكم) أو (ود الشول) وما ذلك لأن الأم نجحت في أن تحتل لها مركزاً خاصاً في الحلة.

ليس لتعليمها وتخرجها من المدرسة بل لروعة إدارتها للأسرة الكبيرة من أولاد وبنات ويكون نتاج ذلك التغيير الرائع الذي توصلت إليه الحلة ومن ثم المدينة أم درمان العظيمة.

* * *

خـــاتمة

خير ما يختم به الحديث الشيء الجميل الذي يبعث السرور والسعادة والرضى. إن للأسماء سحراً بمعنى أن أسم الشخص قد تكــون لـــه دلالات تنعكس على الشخص نفسه في سلوكه وفي مسار حياته مــن أولهـــا إلـــى أخرها وقد درج العرب مثلاً على نسبة ابنائهم الأسماء التي تدل على القوة والجلد والشجاعة والصبر فسموا (صقر) و(فهــد) و(ضــرغام) و(مهنــد) وغيرها من الأسماء الصارمة القوية وقد يــنعكس بعــضها علـــى ســلوك وتصرفات الشخص في حياته.

وفي الحلة كانت هناك أسماء عديدة منها العادي بأن تتم تسمية الأب على الجد أو البنت على الجدة ولكن هناك أسمان انطبعاً فـــي ذهنـــي وأنـــا صغير في الحلة والذي زاد من انطباع الأسمين هو ما كــان مــن ســلوك الشخصين اللذين حملا الأسمين.

أولهما (نور الشفيع). وأنا صغير وكنت كثير السؤال لأبي الذي كلــن يقربني منه ويتبسط معي في الحديث ويحاول تعليمي كل شيء وشرح كــل شيء قلت لأبي أمي آمنة وأختي رقية وأختي هدى وأختـــي نعمـــة كلهـــا أسماء معروفة ولكن ما معنى أسم خالتنا (نور الشفيع) زوجة عمنا عمـــر خلف الله.

ضحك أبي وكان دائماً يعجب من كثرة أسئلتي وحبـــي لمعرفـــة كـــل شيء. قال لي أبي أن الشفيع هو رسول الله صــلى الله عليـــه وســـلم وأن نورة هو نور النبوة ونور الرحمة ولذا عندما سميت جارتنا نـــور الـــشفيع كان المقصود بالاسم أنـها نور شفيعنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وصرت دوماً أفكر وأنا أمر كل صباح إلى منزل جيراننا لنذهب أنا وصديقي أحمد عمر خلف الله إلى المدرسة وأشاهد خالتنا نور الشفيع وهي تعد الشاي لأولادها وبناتها وزوجهاأي أن هناك نور ينعكس من وجهها السمح الجميل وابتسامتها ومعاملتها لذريتها.

هذه واحدة ولكل شخص أن يعجب من اسم نور الشفيع فهو اسم غير متداول وقد كان والدها يأمل أن تكون بنته نوراً يشع وقد صدق حدثه.

أما الثانية فإن لنور الشفيع أخ وأن والدهما ربما كان رجلاً رائعاً في تفكيره وآماله وتطلعاته رغم الفقر الذي كان يعم كل الأهل والجيران والمعارف فقد كان الاسم الذي سبق نور الشفيع هو اسم أخوها (هداية الله) اسم يستحق أن يقف المرء عنده (هداية الله) فهل هناك أعظم من (هداية الله) (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلم تجد له ولياً مرشدا).

عمنا (هداية الله) رجل ولا كل الرجال عرفته وأنا صغير وقد توفى والدي وتركنا صغاراً ولم يترك سوى منزل واحد باسمه وشاركنا في المنزل أخوتنا من أبينا وأعمامنا وعماتنا لأن والدنا توفي قبل والدته وقد باع أهلنا نصيبهم إلى جار في الحي فما كان من (هداية الله) وآخرين من خيرة أهل الحي أن يذهبوا إلى الرجل الذي أشتري أنصبة أهلنا ويردون لنا ما أقتطع من البيت بعد أن اقنعوا المشترى أن هذا بيت أيتام ولا يصح أخذه منهم.

هكذا كان هداية الله لم يكن موسراً ولا غنياً ولا عالماً ولكنه كان رجلاً وكان (هداية الله) كله خير ومودة وشهامة وصدق ووهبه الله من الذرية الطبيب والمهندس والفني وكذلك البنات الصالحات كما وهب (نور الشفيع) مثل ما وهب أخيها وهكذا كان (هداية الله) و(نور الشفيع) هداية ونوراً في الحلة. عليهما رحمة الله وأن يجعل البركة في ذريتهما.

وبالرغم من الفقر والفقر الشديد فإن روح المرح والسعادة والضحك تبدو في بعض الأسماء فهناك شايقي وليس دينكاوي وقصير وليس طويل وأبنه دلدوم وذلك اسم من جبال النوبة وهناك متقرس ولم أجد للاسم معنى

معروف وقدمنا اسم برجل وحنانيف وهناك بطران وفاجوخا واباكليا. أسماء من أين جاءت لا أحد يدري ولكنها تدل على روح الدعابة والمرح وهنـاك أسماء أخرى للنساء فهناك الدودو والنخيل وحكم والجودلية والرسالة هذه فقط عينة.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

دار عـــــزة للنـشـر- الخرطوم

ت: ٠٠٢٤٩/٨٣٧٨٧٢٠٠ – ٠٠٢٤٩/٨٣٧٩٧٠٨٤ فاكس: ٨٣/ ٧٨٧٢٠٠

الرقم	الكتاب	المؤلف	نوع الكتاب	السعر بالجنيه	السنة
٢٠٩	الفكاهة ليست عبثاً	الصادق المهدي	أدب	٢٠	٢٠٠٧
٢١٠	متى يأتي الخريف للجزيرة	د. كامل ابراهيم حسن	رواية	١٠	٢٠٠٧
٢١١	حول منهج عقلاني لفهم التراث	د. كامل ابراهيم حسن	دراسة	١٠	٢٠٠٧
٢١٢	ملامح من الوجه القديم	مصطفى سند	شعر	٦	٢٠٠٧
٢١٣	أنها بردة الجمال	مصطفى سند	شعر	٦	٢٠٠٧
٢١٤	أمة كلها إبداع	محجوب حسن	أدب	١٠	٢٠٠٧
٢١٥	ساري الليل (جراد الشجر)	محمد مصطفى حسن	زراعة	٨	٢٠٠٧
٢١٦	أولاد الترابي (الانكار والتنكر)	عبدالماجد عليش	سياسة	٢٥	٢٠٠٧
٢١٧	إدارة الوقت في السودان	شاكر شريف	زراعة	٢٠	٢٠٠٧
٢١٨	الطنبور وأغاني الشايقية	إخلاص محمد الحسن	سياسة	١٠	٢٠٠٧
٢١٩	تطور المرأة السودانية وخصوصيتها	تاج السر عثمان	إدارة	١٠	٢٠٠٧
٢٢٠	تشريح العقل العرقي	د. منتصر الطيب	أدب	١٠	٢٠٠٧
٢٢١	ترانيم الحصار	عمر عبدالله محمد	دراسة	٨	٢٠٠٧
٢٢٢	التراث السياسي الممتد	د. عبد الحميد محمد أحمد	دراسة	٨	٢٠٠٧
٢٢٣	قصة كفاح ونجاح(مذكرات شرطي)	أبو حميد حسن إبراهيم	مذكرات	٢٠	٢٠٠٧
٢٢٤	تاريخ وجغرافية السودان	نعوم شقير	تاريخ	١٠٠	٢٠٠٧
٢٢٥	اقتصاديات النقل النهري	د. محمد عثمان خضر	اقتصاد	١٥	٢٠٠٧
٢٢٦	المرشد إلى المنظمات الدولية	أحمد الصافي	إدارة	٥٠	٢٠٠٧
٢٢٧	صراع السلطة والثروة في السودان	ترجم الفاتح عثمان- محمد علي جادين	اقتصاد	٢٠	٢٠٠٧
٢٢٨	Traditional in Sudanese Medicine	أحمد الصافي	طب	٨٠	٢٠٠٧
٢٢٩	مشارطات إيجار السفن	محمد حسب الرسول	قانون	٢٠	٢٠٠٧
٢٣٠	تصبحين على وطن	د. طارق مطيع	رواية	٧	٢٠٠٧
٢٣١	صولجان من خشب	سارة شرف الدين محمد	رواية	٧	٢٠٠٧
٢٣٢	القرين وقصص أخرى	اسامة عبدالحفيظ محمد	مجموعة قصصية	٨	٢٠٠٧
٢٣٣	استنباط آيات القرآن الكريم (يحيى الموتى	م. علاء الدين محمد بابكر	دراسة	١٥	٢٠٠٧

٢٣٤	فرنوب في بلاد موديبا انطباعات عن جنوب أفريقيا	د. كامل إبراهيم حسن	مقالات	١٥	٢٠٠٧
٢٣٥	في سبيل تحسين العمل القيادي	عبد الخالق محجوب	سياسة	٨	٢٠٠٧
٢٣٦	المترجمة	ليلى أبو العلا	رواية	١٥	٢٠٠٧
٢٣٧	الفكر الإسلامي وقضية المراة	د. عمر القراي	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٣٨	غلام الله بن عابد وآثاره في السودان	د. سمير محمد عبيد نقد	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٣٩	آذان الأنعام	د. عماد محمد بابكر م. علاء الدين محمد بابكر	دراسة	٢٠	٢٠٠٧
٢٤٠	الحركة النقابية	من الله عبد الوهاب	دراسة	٢٠	٢٠٠٧
٢٤١	الصادق المهدي والانكفائية ودعاوى التجديد	د. عمر القراي	سياسة	١٥	٢٠٠٧
٢٤٢	العمارة في السودان	الجمعية الهندسية	هندسة	٢٥	٢٠٠٧
٢٤٣	صباحات زاهي مساء الجنرالات	محمد الفكي سليمان	رواية	١٠	٢٠٠٧
٢٤٤	السيف والنار	سلاطين باشا	تاريخ	٣٥	٢٠٠٨
٢٤٥	الأم	مكسيم جوركي	رواية	٢٠	٢٠٠٨
٢٤٦	تحفة العروس			١٥	٢٠٠٨
٢٤٧	السرة بت عوض الكريم	محمد حسن سالم حميد	شعر	٧	٢٠٠٧
٢٤٨	انجيلا تمثال الصمت	عبدالله الزين	نص	٨	٢٠٠٧
٢٤٩	سقراط	د. موسى عبدالله حامد	دراسة	١٥	
٢٥٠	استقلال السودان	د. موسى عبدالله حامد	سياسة	٤٠	٢٠٠٧
٢٥١	مغيب الشمس	د. موسى عبدالله حامد	رواية	١٠	٢٠٠٧
٢٥٢	بعض هذا القرنفل	نور الدين الصادق	رواية	١٥	٢٠٠٧
٢٥٣	الإسلام والسلام	خالد الحاج عبدالمحمود	سياسة	٣٠	٢٠٠٧
٢٥٤	صدى السنين – أيام الجامعة	د. موسى عبدالله حامد	مذكرات	٢٥	٢٠٠٧
٢٥٥	الثروة الحيوانية في السودان	محمد سليمان محمد	اقتصاد	٢٠	٢٠٠٧
٢٥٦	التسمم الغذائي	محمد المصطفى حسن	علوم	١٠	٢٠٠٧
٢٥٧	أليس منكم رجل رشيد	محمد المصطفى حسن	مقالات	١٠	٢٠٠٧
٢٥٨	المقاييس المنطقية للأخلاق	متوكل محمدين	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٥٩	وجهة الضبط ومفهوم الذات علاقتهما بالإكتئاب لدى المسن المعاشي	د. مي عز الدين عثمان	علم نفس	١٥	٢٠٠٧
٢٦٠	عصافير بلا أجنحة	هيثم مامان	شعر	١٠	٢٠٠٧
٢٦١	بعض أحاديث ما دار	مجاهد بابكر	شعر	٨	٢٠٠٧
٢٦٢	من ذاكرة الريح	عبدالرحيم عبدالحليم	شعر	١٠	٢٠٠٧

٢٦٣	أساسيات علم الفطريات	د. محجوب حسن عبدالله	أحياء	٢٠	٢٠٠٧
٢٦٤	الدايوكسين أكياس البلاستيك	آدم إسماعيل	كيمياء	١٥	٢٠٠٧
٢٦٥	قم للمعلم	د. عبدالرحيم محمد بابكر	تربية	١٠	٢٠٠٧
٢٦٦	أسياسات ومبادئ حفظ الأغذية	آدم إسماعيل	كيمياء	١٥	٢٠٠٧
٢٦٧	صهوة العمر الشقي	عبد الاله زمراوي	شعر	١٠	٢٠٠٧
٢٦٨	من أجل مشروع قومي لمناهضة التعذيب	د. جعفر محمد صالح	دراسة	٦	٢٠٠٧
٢٦٩	علي فضل شهيداً	د. عبدالقادر الرفاعي	دراسة	٢٥	٢٠٠٧
٢٧٠	أسرار جهاز الأسرار	عميد هاشم أبورنات - محمد عبدالعزيز محمد	دراسة	٢٠	٢٠٠٧
٢٧١	أعاصير استوائية	عبد الرحمن فضل	رواية	١٥	٢٠٠٧
٢٧٢	بناء أمة	د. عبدالرحيم محمد بابكر	دراسة	١٠	٢٠٠٧
٢٧٣	تقويم نقدي لتجربة الحزب الشيوعي	تاج السر عثمان	سياسة	١٠	٢٠٠٧
٢٧٤	موسم الهجرة إلى اليمين	صدقي كبلو	سياسة	٨	٢٠٠٧
٢٧٥	حول النخبة والطبقة الجهوية	صدقي كبلو	سياسة	٧	٢٠٠٧
٢٧٦	حول نظرية الثورة السودانية	صدقي كبلو	سياسة	٧	٢٠٠٧
٢٧٧	السياسة الاقتصادية للدولة والثورة المهدية	صدقي كبلو	سياسة	١٠	٢٠٠٧
٢٧٨	الماركسية وقضايا الثورة السودانية	الحزب الشيوعي السوداني	سياسة	١٠	٢٠٠٧
٢٧٩	المرأة السودانية ظلمات الماضي واشراقاته	مختار عجوبة	دراسة	١٠	٢٠٠٧
٢٨٠	الرأسمالية	د. محمود محمد يسن	اقتصاد	٦	٢٠٠٧
٢٨١	ضربة البداية	د. بابكر علي ديومة	مجموعة قصصية	١٠	٢٠٠٧
٢٨٢	دليل الأنساب	عثمان حمد الله	دراسة	١٥	٢٠٠٧
٢٨٣	قباب الشرق	صلاح عمر الصادق	آثار	٢٠	٢٠٠٧
٢٨٤	خواطر وذكريات عن أهل الفن بشمبات	د . كامل إبرهيم حسن	مذكرات	١٠	٢٠٠٧
٢٨٥	الشـــــخصـــــيات	د . كامل إبرهيم حسن	مذكرات	١٠	٢٠٠٧
٢٨٦	كيلا تختلط الأوراق من يقود الرأسمالية	د. صدقي كبلو	سياسة	٨	٢٠٠٧
٢٨٧	ورود الشتاء	أمير عوض إبراهيم عثمان	رواية	١٠	٢٠٠٨
٢٨٨	أحزان لها تاريخ	صلاح الفكي	رواية	١٠	٢٠٠٨
٢٨٩	CHRISTIAN – MUSLIM RELATIONS IN SUDAN: A STUDY OF THE RELATIONSHIP BETWEEN CHURCH AND STATE	GABRIEL GAI RIAM	دراسة	١٥	٢٠٠٨
٢٩٠	تاريخ سلطنة المسبعات	سميرة العوض حامد جبر الدار	تاريخ	٧	٢٠٠٨
٢٩١	أجراء الريف	يوسف عبدالحميد	سياسة	٦	٢٠٠٨
٢٩٢	دارفور حقيقة الثورة والإبادة	ذو النون التجاني أحمد	سياسة	٢٠	٢٠٠٨

٢٩٣	الاتجاهات الفكرية للمرأة السودانية	فاطمة بابكر	سياسة	٢٠	٢٠٠٨
٢٩٤	أهم آفات الذرة بالإقليم الأوسط ووسائل مكافحتها	محمد المصطفى حسن	زراعة	١٠	٢٠٠٨
٢٩٥	انجمينا مدينة لكل الناس	أدم يوسف	رواية	١٠	٢٠٠٨
٢٩٦	أغاني الحقيبة الحبيبة	محمد الحسن على (الجقر)	أدب	٢٠	٢٠٠٨
٢٩٧	العلة المادية والاشتراكية	محمد يسن	سياسة	١٥	٢٠٠٨
٢٩٨	حسن أفندي	د. كامل إبراهيم	مقالات	١٠	٢٠٠٨
٢٩٩	دراسات في التصوف	د. نصر الدين سليمان	دين	١٥	٢٠٠٨
٣٠٠	رد الجميل	محجوب شريف	أدب		٢٠٠٨
٣٠١	المهدية والسودان المصري	محمد المصطفى حسن	تاريخ	٤٠	٢٠٠٨
٣٠٢	الماضي المعاش في جبال النوبة	د. يوسف اسحق أحمد	اجتماع	٢٠	٢٠٠٨
٣٠٣	أغاني الحقيبة والقصص الحبيبة	محمد الحسن علي (الجقر)	أدب	٢٠	٢٠٠٨
٣٠٤	ضد ذاكرتي	عبد المنعم الكتيابي	شعر	١٠	٢٠٠٨
٣٠٥	نظريات علم الاجتماع والنوع	د. الهام عبدالرحمن عثمان	اجتماع	١٥	٢٠٠٨
٣٠٦	مبادئ فيزياء الجوامد	أحمد خوجلي	فيزياء	٢٠	٢٠٠٨
٣٠٧	العولمة واقتصاد السودان	د. عمران عباس يوسف	اقتصاد	٣٠	٢٠٠٨
٣٠٨	من كل نبع قطرة	أدم محمد أحمد عمر	أدب	١٥	٢٠٠٨
٣٠٩	الانصاف لمدح كامل الأوصاف	السموال خلف الله القريش	شعر	١٠	٢٠٠٨
٣١٠	الطبقة الجديدة –تحليل للنظام الشيوعي	ترجمة: د. موسى عبدالله حامد	دراسة	٢٠	٢٠٠٩
٣١١	من مانديلا إلى عبدالله الطيب	هاشم مساوي	دراسة	١٠	٢٠٠٩
٣١٢	جبال النوبة الإثنية السياسية والحركة الفلاحية	عطا البطحاني	دراسة	٢٠	٢٠٠٩
٣١٣	نظرات في المجتمع الإسلامي	عبدالله الطيب	دراسة	١٠	٢٠٠٩
٣١٤	العزلة –الوحدة والانفصال	د. جون قاي نوت يوه	سياسة	١٥	٢٠٠٩
٣١٥	ثورة في جبال الأستوائية	د. جون قاي نوت يوه	سياسة	١٥	٢٠٠٩
٣١٦	آفاق وتحديات	د. جون قاي نوت يوه	سياسة	١٥	٢٠٠٩
٣١٧	أشكالية التنمية الاقتصادية	د. موسى صالح حريكة	اقتصاد	١٥	٢٠٠٩
٣١٨	الإدارة التعليمية مبادئ وتطبيقات عملية	د. موسى صالح حريكة	تربية	١٠	٢٠٠٩
٣١٩	لك الحب	مصطفى سند	شعر	٦	٢٠٠٩
٣٢٠	الفارس الأعزل	محمد الواثق	شعر	١٠	٢٠٠٩
٣٢١	المدينة مجهولة الهوية	مها عبدالمنعم	م. قصصية	١٠	٢٠٠٩
٣٢٢	أوزان الدوبيت السوداني	محمد الواثق	دراسة	١٠	٢٠٠٩
٣٢٣	مع الدوبيت	سعد عبدالقادر العاقب	دراسة	٢٠	٢٠٠٩

٣٢٤	أم درمان تحتضر	د. محمد الواثق	شعر	٦	٢٠٠٩
٣٢٥	موسم الحب	هيثم مامان	شعر	١٠	٢٠٠٩
٣٢٦	مذكرات عاشق	هيثم مامان	شعر	١٠	٢٠٠٩
٣٢٧	الجوافة	هدى الجزار	م. قصصية	١٠	٢٠٠٩
٣٢٨	الزمخشري وابن يعيش	د. سلوى طيفور أحمد طيفور	لغة عربية	٢٠	٢٠٠٩
٣٢٩	ثلاثتهم دهاقنة - حزباوات لدنة خضراء برائحة تَعَبق	عثمان شنقر	م. قصصية	١٠	٢٠٠٩
٣٣٠	ونذكرهم بأيام الله	بدر الدين يوسف السميث	دراسة	١٥	٢٠٠٩
٣٣١	ما وراء الكلمات	بدر الدين يوسف السميث	،،	١٥	٢٠٠٩
٣٣٢	شذا زهرة الحياة	بدر الدين يوسف السميث	،،	١٥	٢٠٠٩
٣٣٣	علامات على طريق مطروق	بدر الدين يوسف السميث	،،	١٥	٢٠٠٩
٣٣٤	وجوه في الزحام	مزمل سلمان غندور	أدب	٢٠	٢٠٠٩
٣٣٥	حكايات أم درمان الكريمة	مزمل سلمان غندور	أدب	٢٠	٢٠٠٩
٣٣٦	الحلم والقدر	مزمل سلمان غندور	رواية	٢٠	٢٠٠٩
٣٣٧	حكايات أم درمان القديمة	مزمل سلمان غندور	أدب	٢٠	٢٠٠٩
٣٣٨	أيام زمان	مزمل سلمان غندور	رواية	٢٠	٢٠٠٩
٣٣٩	سلسلة محاضرات مركز البحوث والوثائق الاقتصادية والقانونية بالخرطوم بالمركز الثقافي الفرنسي	بربرا كاشياري	دراسة	١٥	٢٠٠٩
٣٤٠	الهوية وتمزق الدولة السودانية	د. عبدالله محمد قسم اسيد	دراسة	٢٥	٢٠٠٩
٣٤١	الشعر الشعبي عند الشايقية اثاره وأنعكاساته الاجتماعية	د. نصر الدين سليمان علي فضل الله	دراسة	٢٥	٢٠٠٩
٣٤٢	التفسير بمنهج جغرافي	د. بحر الدين عوض شقف	دراسة	٨	٢٠٠٩
٣٤٤٤	مدينة مجهولة الهوية	مها عبدالمنعم	مجموعة قصصية	١٠	٢٠٠٩
٣٤٥	ضمور الفكر العربي المعاصر (بحوث حول الواقع الراهن)	متوكل علي محمدين	دراسة	١٠	٢٠٠٩
٣٤٦	حكايات السوق القديم	محمد الفكي سليمان	رواية	١٠	٢٠٠٩
٣٤٧	من دبلوماسية	الأمين عبداللطيف	سياسة	٢٠	٢٠٠٩
٣٤٨	السيرة العطرة فيْ بَيْت رَسُول الله (صلّىَ اللهُ عَلَيْه وَسلَّمَ)	سعاد بابكر محمد علي	دين	٨	٢٠٠٩
٣٤٩	إليكم أعود وفي كفي القمر	عمر الحويج	مجموعة قصصية	١٠	٢٠٠٩
٣٥٠	مجنون	عبدالحميد محمد احمد	رواية	١٠	٢٠١٠
٣٥١	جينات سودانية	عمرو منير	دراسة	١٠	٢٠١٠
٣٥٢	الايتكتيت	انتصار إبراهيم محجوب	دراسة	١٠	٢٠١٠
٣٥٤	أولاد الحلة	مزمل سلمان غندور	مجموعة قصصية	١٠	٢٠١٠
٣٥٥	طلحة والزبير	مزمل سلمان غندور	مجموعة قصصية	١٠	٢٠١٠

٣٥٦	الحب في أم درمان القديمة	مزمل سلمان غندور	مجموعة قصصية	١٥	٢٠١٠
٣٥٧	ما بين ٢٥ مايو إلى ٣٠ يونيو	مزمل سلمان غندور	مذكرات	١٥	٢٠١٠
٣٥٨	الصفوة السودانية	عمرو منير	دراسة	١٠	٢٠١٠
٣٥٩	أشواق للسيف المبصر	موسى إبراهيم محمد	مذكرات	١٥	٢٠١٠
٣٦٠	مذكرات معتقل سياسي	صدقي كبلو	مذكرات	١٥	٢٠١٠
٣٦١	الخندق (الجزء الثاني)	عبدالحميد محمد أحمد	تاريخ	٢٠	٢٠١٠
٣٦٢	الصورة في الصحافة السودانية	د. نصر الدين سليمان	دراسة	١٥	٢٠١٠
٣٦٣	المختار من شعر الحماسة السودانية	عبدالحميد محمد أحمد	شعر	٢٠	٢٠١٠
٣٦٤	جنوب السودان	د. ماجد بوب	سياسية	٣٠	٢٠١٠
٣٦٥	رؤى ومشاهد في شئون الأسرة	رقية عبدالقادر شريف	دراسة	٢٠	٢٠١٠
٣٦٦	دارفور من أزمة دولة إلى صراع القوى العظمى	د. عبده مختار موسى	سياسة	٢٠	٢٠١٠
٣٦٧	نريد أرض ارتريا وليس شعبها	الامين محمد سعيد	دراسة	١٢	٢٠١٠
٣٦٨	ارتريا أرض البحر – الجزء الأول (الاطماع)	الامين محمد سعيد	دراسة	٢٠	٢٠١٠
٣٦٩	بنيان الوعي المسلم ومشروع الإنسان الكامل	عبد المؤمن إبراهيم أحمد	دراسة	١٠	٢٠١٠
٣٧٠	خطوة نحو تثقيف الداعية المعاصر	كمال عبدالمنعم صباحي	دراسة	١٠	٢٠١٠
٣٧١	الجريمة في أم درمان – غندور	مزمل سلمان غندور	رواية	١٠	٢٠١١
٣٧٢	أولاد الحلة	مزمل سلمان غندور	رواية	١٠	٢٠١١
٣٧٣	ما بعد أيام زمان	مزمل سلمان غندور	دراسة	١٥	٢٠١١
٣٧٤	ما وراء الاستار	مزمل سلمان غندور	رواية	١٠	٢٠١١
٣٧٥	عائشة وزينب	مزمل سلمان غندور	رواية	١٠	٢٠١١
٣٧٦	تاريخ مدينة العليفون	علي الفكي	تاريخ	١٥	٢٠١١
٣٧٧	دموع في عيون بريئة	مناهل الماحي	رواية	١٥	٢٠١١
٣٧٨	شجون وعيون	مجدي عبدالوهاب	شعر	٨	٢٠١١
٣٧٩	ما بهذا بعث النبي	د. يوسف عبدالله	دراسة	١٠	٢٠١١
٣٨٠	الصعود نحو الشمس	مها عبدالمنعم	رواية	٥	٢٠١١
٣٨١	صدر تحت تحناني	هثيم مامان	شعر	٨	٢٠١١
٣٨٢	شعراء متمردون	عبدالحميد محمد أحمد	دراسة	١٠	٢٠١١
٣٨٣	الهوية والجنسية السودانية	الطيب عبدالجليل حسين محمود	قانون	٢٠	٢٠١١
٣٨٤	الحرب لم تكن خياري	ابتسام حمد النيل	رواية	٨	٢٠١١



دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان



مزمل سلمان غندور

من مواليد أم درمان – حي البوستة – ١٩٢٨م

تعلم في عدد من خلاوي أم درمان قبل دخول كتاب العباسية بأم درمان ثم مدرسة أم درمان الوسطى ثم الثانوية ثم وادي سيدنا ثم جامعة الخرطوم لفترة قصيرة منها إلى الكلية الحربية في أول دفعة.

تخرج في أول دفعة من كلية الحقوق جامعة القاهرة الفرع، ودرس في أول دفعة بالمعهد الفني – هندسة مدنية.

عمل في سلاح المهندسين والقيادة الشرقية والقيادة الشمالية ورئاسة القوات المسلحة وملحقاً عسكرياً في لندن وحصل على ماجستير في العلوم العسكرية من كلية القيادة والأركان الأمريكية ودراسات عليا في أكاديمية ناصر العليا في القاهرة، شارك في الفترة الثانية لحكم مايو ما بين ١٩٧١– ١٩٧٩ وتقلد مناصب، سفيراً للسودان في ألمانيا الغربية ثم مستشاراً لرئيس الجمهورية للعون الاقتصادي الخارجي ثم وزيراً للداخلية، رُشح في انتخابات مجلس الشعب الثالث عن مدينة أم درمان وفاز وعمل نائباً لرئيس مجلس الشعب.

عمل مستشاراً عسكرياً في الحرس الوطني السعودي برتبة اللواء وشارك في إصدار مجلة الحرس الوطني السعودي.

